

بسم الله الرحمن الرحيم

ذو النون إمام التصوف المصرى فى عصره

تمهيد : يعد ذو النون المصرى من أئمة التصوف الكبار فى القرن الثالث الهجرى وهذا يتضح بجلاء من كتب التراجم والطبقات <sup>(١)</sup> التى تناولت سيرته والتى تجتمع

(١) التراجم التى كتبت عن ذو النون

الكلباوى : المتوفى ٣٨٠ هـ / ٩٩١ م . التعرف لمذهب أهل التصوف تحقيق:  
د . عبدالحليم محمود وطه عبدالباقي سرور ص ٢٨ القاهرة ١٩٦٠م - ابوطالب  
المكى المتوفى سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٧ م . قوت القلوب . القاهرة ١٣٥١ هـ -  
١٩٣٢ م - عبدالرحمن السلمى المتوفى ٤١٢ هـ / ١٠٢٣ م ص ٨ القاهرة ١٩٤٥  
القشبرى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ / ١١٧٦ م . الرسالة تحقيق  
د . عبدالحليم محمود ومحمود الشريف ج ١ ص ٦٧ - الغزالي المتوفى سنة  
٥٠٥ هـ / ١١١١م احياء علوم الدين ج ٤ جاء به أقوال متفرقة فى مذهب  
ذو النون الصوفى تحقيق د . بدوى طبانه القاهره ١٣٣٤ هـ - محيى الدين بن  
عربى المتوفى ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى  
مخطوط بمرأى أحمد الثالث ( ١٣٧٨ هـ / ١٩٥ ورقة توجد منه نسخة مصورة  
بمعهد المخطوطات - القاهرة تحمل رقم ٤٢١ تاريخ - وقد قمت بتصويره  
والأحتفاظ به وقد جاء به تفصيلات عن سيرة ذى النور ومذهبه الصوفى ومكانه  
فى عصره - أبوبكر السيوطى المتوفى ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م - السر المكنون فى  
مناقب ذى النون مخطوط مكون من ٩٦ ورقة - مكتبة باريس ٢٠٤٣ بعنوان  
المكنون فى مناقب ذى النون - فجد (٤٤٤١) - كشتريبتى ( ٤٨٦٥ ) ضمن  
مجموعة الأوراق من ١ : ٧٨ . نسخ عام عام ١١١٤ هـ - لم استطع الحصول  
عليه نظرا لوجوده فى مكتبات خارج القطر .

- قمة العباس بن حمزه النيسابورى المتوفى ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م مع ذى النون  
المصرى . قد أملاه ذو النون على العباس بن حمزه ويرويه ابى بكر أحمد بن  
الحسن البيهقى المتوفى ٤٥٨ هـ / ١٠٦٥ م توجد منه نسخة بمكتبة ليبىزج  
بألمانيا الشرقية تحمل رقم ٧٨٥ / ٤ ( من ٥٩ ب - ٧١ ب ) ولم يتيسر لى  
الاطلاع عليه نظراً لعدم امكانية تصويرها لوجودها خارج القطر - مقام ذى النون  
بين الملوك فى كتاب ( مكارم الأخلاق مجهول المؤلف يوجد بمكتبة البنغال  
مخطوط فى خمس ورقات . ولم اتمكن من الاطلاع عليه . عبدالوهاب الشعرانى  
المتوفى فى ٩٧٣ هـ / ١٥٦٥ م الطبقات الكبرى ج ١ تحقيق عبدالقادر احمد  
عطا القاهرة ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م - عبدالرؤوف المناوى - الكواكب الدرية فى

على أنه كان صوفيا كاملا متمتعا بمكانة مرموقة بين معاصريه من العلماء  
والمؤوية في العالم الاسلامى عامة وفى مصر خاصة . فقد كان له دوره الرائد فى  
إرساء أسس التصوف السنى النظرى ، وتوضيح معالم الطريق إلى الله ورسم معالمه  
وآدابه . فله حديث طريف عن النفس الإنسانية ومجاهداتها عن طريق الرياضيات  
العملية كالذكر والسماع والعزلة والخلوة والحج والصمت وغيرها .

= فى مناقب السادة الصوفيقي ٢٢٢ القاهرة سنة ١٩٢٨ الزركلى الأعلام ص ٨٨  
الطبعة الثانية القاهرة ١٢٧٢ هـ / ١٩٥٤ م - ابن العماد الحنبلى . شذرات  
الذهب ص ١٧ مكتبة القدس القاهرة سنة ١٢٥٠ م اسماعيل البغدادي : هدية  
العارفين ص ٢٤٩ استانبول سنة ١٩٥١ م ابن النديم الفهرست ص ٥١٧ ابونعيم  
الأصبهاني حلية الأولياء ج ٩ عشرة صفحات متفرقة - ابن خلكان وفيات الاعيان  
ج ١ ص ١٢٦ البستانى دائرة المعارف ج ٨ ص ١٤٥ بيروت - الخطيب  
تاريخ بغداد ج ٨ ص ٣٩٢ - التهذيب لبن عساكر ج ٥ ص ٢٧١ - القفطى :  
تاريخ الحكماء ص ١٨٥ - ابن حجر :- لسان الميزان ج ٢ ص ١٠٧ - اليافعى  
مرآة الجنان ج ٢ ص ١٢٩ - فؤاد سزكين - تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ٤٤٤  
نقله إلى العربية د . فهمى أبو الفضل و د . محمد حجازى - الهجويرى  
كشف المحجوب - ترجمة نيكلسون ص ١٠٠ - جلال الدين الرومى المثنوى -  
ترجمة س . أ . ولسون ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٨ لندن ١٩١٠

Carl Berockelmen: Geschichte Der Arabischen Littera-  
ture. I. 353.

Louis Massignon: Essai Sur les Origines Du Lexique  
technique de la mystique musulmane, Paris 1922.

نيكلسون : الصوفية فى الإسلام - القاهرة ١٢٧١ هـ / ١٩٥١ م ترجمة نورالدين  
شريبه . نيكلسون فى التصوف الاسلامى وتاريخه ص ٣٩ القاهرة ١٣٨٨هـ/١٩٦٩ م

والرياضيات الروحية والتحقق بمقامات السلوك الصوفى كالتوبة والصدق والإخلاص والرضا والمحاسبة والمراقبة • والزهد واليقين • والخوف والرجاء وغيرها من المقامات والأحوال كالأنس والفناء وغيرها والتي كان له السبق فى تناولها بالتحليل والتفصيل مبينا أن المتحقق بها تصفو نفسه وتطهر سريرته وتسمو أخلاقه ويتهايا قلبه لتلقى المعرفة الذوقية الشهودية •

ولا ريب أن القارىء لمذهب ذى النون الصوفى يتستطيع أن يلمس بوضوح الجهد الذى ساهم به فى جعل التصوف الإسلامى مذهباً تربوياً يهدف إلى تهذيب النفس الإنسانية وتربيتها تربية دينية معمقة لتزكية جانب الخير فيها وتطويع النفس الامارة بالسوء للنفس المطمئنة حتى يغلب فيها الخير وتتبدل صفاتها الذميمة بصفات حميدة وحتى يتهايا أخلاقه وترق مشاعره ويصفو قلبه وتطمئن نفسه ويتأدب بآداب الشرع ويصير صوفياً كاملاً متحققاً بالكمال الأخلاقى متقرباً إلى الله محباً له مطيعاً لأوامره شاكراً نعمه راضياً بقضائه مخلعاً فى عبادته • متوكلاً عليه • ذاكرة له متوجهاً إليه وحده زاهداً فيما سواه متهايا للاتصال الروحى به والمثول فى حضرته متلقى المعارف التى يفيضها على قلبه من لدنه تعالى دون واسطة من حس أو عقل •

وقد أوضح ذو النون طريقين للمعرفة بالله التى آفاض الحديث عنها مبينا مناهجها وأدواتها ودرجاتها وطرق المجاهدة والرياضات التى يأخذ بها الصوفى نفسه حتى تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويسير اهلاً لتقبل المعرفة الذوقية عن الله وهذا الطريق يكون عن تعمد وإرادة من السالكين • أما الطريق الثانى فهو طريق الهمجتيين أو المجذوبين الذى يصفىهم ربهم ويكشف لهم عن وجوده ابتداءً فيطلعهم على معرفته تعالى دون تعمد منهم ولا إجتهد ثم بعد أن يتحققوا بمعرفة الله تعالى يأخذون أنفسهم بالمجاهدات والرياضات لتهايا ليكونوا اهلاً لتلك المعرفة وهذا ما سياتى الحديث عن تفصيلاً فى تناولنا للمعرفة عند شيخنا المصرى •

والدارس لمذهب ذي النون الصوف وتطريته في المعرفه والمحبه والزهد يتبين أنه  
أضاف الكثير إلى أقوال زهاد القرنين الأوليين للهجرة كالحن البصرى المتوفى سنة ١١٠هـ /  
٧٢١ م وراية العدوية سلطنة العشق الإلهى المتوفاة سنة ١٨٥ هـ / ٨٠١ م ومعروف الكرخى  
المتوفى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١١ م وغيرهم من الزهاد الأوائل الذين وردت أقوالهم فى كتب الطبقات  
الصوفية كالرسالة القشيرية واللمع للطوسى وغيرها . وكانت رابعة العدوية قد مهدت طريق  
المحبة بما تغنت به فى مذهبها فى الحب الإلهى شهرا ونثرا مما أفاد منه من جاء بعدها  
وتأثر به ذو النون وغيره من الصوفية .

ويقول نيكلسون (١) والمرحوم الدكتور محمد محطفى حلمي (٢) أنه ظهر عند ذى النون  
الخصائص التيوزوفية للتصوف فى صورتها الأولى . أما فؤاد سزكين فيقول " يقوم اتجـالـهـ  
الأساسى فى التصوف على الغنوصية Gnosticism (٤) ولكنه ظل فى إطار أهل السنه ، وأنه  
تعرض بسبب آرائه الصوفية لهجوم المالكيه وهجوم المؤرخ عبدالله بن عبدالحكم كما هاجمته  
المعتزله لقوله بقدم القرآن (٥) .

(١) نيكلسون : فى التصوف الإسلامى وتاريخه ص ٢٩

(٢) د . محمد محطفى حلمي : الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٠٤ .

(٣) التصوف التيوزوفى هو التصوف الإشراقى الذى يدور المذهب الرئيسى فيه على اتحـالـد  
العبد بالرب .

(٤) الغنوص Gnosis فى أساسه معرفة أشياء دينيه تسمو على مستوى عامة المؤمنين  
أو على مستوى العقيدة الرسمية والغنوصية مذهب تلفيقى يجمع بين الفلسفة والديسن  
ويقوم على أساس فكرة الصادر ومزج المعارف الإنسانية بعضها ببعض ويشمل على طائفة  
المضمون بها على غير أهلها وفيه تلتقى الافكار القبلية بالأفلاطونية الحديثة وبعض  
التعاليم الشرقية كالمزدكية والماتوية . وكان له أثره فى التفكير الفلسفى فى المسيحية  
والاسلام انظر د . ابراهيم مذكور المعجم الفلسفى ص ١٢٣ .

(٤) فؤاد سزكين : تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٥) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٠٤ .

وقد يكون ما حملهم على هذا القول ما جاء على لسان ذى النون من عبارات قليلة استطاعوا ان يستشفوا منها ذلك مثل قوله : " معاشر العارف كمعاشره الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقا باخلاق الله " <sup>(١)</sup> ففي هذه العبارة يذهب ذو النون الى ان العارف بالله حسن العشرة لأنه يتخلق باخلاق الله ولذا فهو يتشبه به تعالى في تحمله وصبره على الناس والصفح عنهم على قدر إمكانه . و صوفينا يعرف تماما ان القياس بين العارف والله تعالى مع الفارق الشديد . فالله سبحانه وتعالى لا يشبه له ولا مثيل . غير أن تلك العبارات ، التي لا يجب على من يسمعها أخذها على ظاهرها ، إعتبرها من كتبوا عن ذى النون صورة أولى للمتصوف التيوزوفى الذى ظهر بوضوح لدى البطانى المتوفى سنة ( ٢٦٠ هـ / ٨٧٥ م ) والذى كان معاصرا لذى النون وكان على صلة به . وهو صاحب نظرية الغناء التى أدت إلى القول بنظرية الاتحاد .

ولما كان صوفينا أول من تكلم علانية فى التعاليم الصوفية <sup>(٢)</sup> كما كان أول من فسّر إشارات الصوفية وتكلم فى الطريق وقال عنه إبو المحاسن <sup>(٣)</sup> أنه أول من تكلم فى مصر فى الأحوال ومقامات أهل الولاية . وكان أهل مصر فى زمانهم لم يكن لهم بمثل ما إختلف به من

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى - مخطوط بمعهد المخطوطات يحمل رقم ٤٢١ تاريخ ل ٤١ .

(٢) ورد فى كتاب نفحات الأنس وفى الكتاب الثانى من مثنوى جلال الدين الرومى قصة طويلة تشير الى الشكوك التى ولدها مذهب ذى النون وكيف كان ينظر اليه على أنه مجنون

(٣) نفحات الأنس ص ٢٦ وما بعدها - دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ٤١٩ مقاله د . محمد مصطفى حلمى عن ذى النون .

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧٥٣ .

علوم الصوفية سابق عهد أو كانوا - على حد تعبير المرحوم الدكتور مصطفى حلمي - علمي أقل تقدير عند أول عهدهم بمثله ، الامر الذي ترتب عليه أن ثاروا عليه ونسبوه الى الزندقة .

ويذكر السيوطي أن أهل مصر قد أنكروا على ذى النون وقالوا أنه أحدث علما لم تتكلم فيه الصحابة ، هذا بالاضافة الى أن بعض فقهاء مصر فى ذلك الوقت ، واهل الحديث بصفة عامة وفقهاء أحميم ببلدته بصفة خاصة قد تعصبوا فده (١) وكان ذو النون على خلاف معهم بسبب

هجومه عليهم فهو يرى أن أهل الفقه والحديث لولا أن دخل عليهم نقص لكانوا أفضل الناس وهذا النقص الذى أشار إليه يتمثل فى أنه يرى أن هؤلاء العلماء يخضعون للمخلوقين دون الخالق ويدعون أنهم أعلى درجة من جميع الخلائق (٢) وربما يرجع تعصب أهل الفقه والحديث

ضد شيخنا الى غيرتهم منه ومن مكانته العلمية بين علماء عصره مما جعلهم ينسبون اليه الكفر والزندقة مثل أواليزيد البسطاني ( المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٨٢٢ م ) وابن الفارض ( المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ٨٤٣ م ) ومحبي الدين ابن عربى ( المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م )

وغيرهم . فهو فى عداد الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة وهذا ما سيتضح لنا بجلاء عند عرض مذهبه الصوفى فهو يحرص دائما على تأكيد ضرورة الالتزام بكتاب الله وسنة رسوله ، وقد شهد له الخليفة المتوكل العباسى بذلك عندما التقى به ببغداد .

والحقيقة أن الالتزام بالكتاب والسنة هى سمه التصوف المصرى على مر التاريخ الإسلامى وقد كان لحذهب ذى النون الصوفى تأثير واضح فيمن عاصره من الصوفيه وفيمن جاء

بعده منهم . فقد تأثر به سهل ابن عبدالله التستري ( المتوفى سنة ٢٨٣ هـ / ٨٩٤ م ) وابو

(١) يذكر د . مصطفى حلمي فى دائرة المعارف ج ٤ ص ٤١٩ أن فقهاء احميم ركبوا مركبا ذاهبين الى سلطان مصر ليشهدوا بكفر ذى النون فانقلب بهم الزورق والناس ينظرون أنظر أيضا المناوى - الكواكب الدرية ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) الشعرانى الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٩ .

تراب النخشي (المتوفى ٢٤٥ هـ / ٨٥٦ م) وأبو عبد الله بن الجلاء الذي كان من أكابر مشايخ الشام وصحبه وهو بغدادى الأصل ..... وأبو سعيد أحمد بن عيسى الخراز (المتوفى عام ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م) وهو من أصحاب ذى النون أيضا إسحق بن ابراهيم السرخسى (المتوفى ٢٩١ هـ / ٨٠٢ م) والذى روى بعض أقوال ذى النون وأبو يعقوب يوسف بن الحسين السمرقندى (المتوفى ٣٠٤ هـ / ٩١٥ م) وقد صحب ذى النون وكذلك كان لأصحاب ذى النون أيضا تأثيراً عليه فى حياته وفى مذهبه (١) . كما يظهر تأثير ذى النون لدى الجنيد البغدادى (المتوفى سنة ٢٩٧ هـ / ٣٠٨ م) والغزالي (المتوفى ٥٠٥ هـ / ١١١١ م) وغيرهم من الصوفية اللاحقين عليه ويقول السلمى أن الكل أخذ عنه وتأثر به .

#### سيرته وممنفاته :

١ - إسمه : جاء بكتب التراجم أن إسمه ثوبان بن ابراهيم (٢) وقيل الفيض بن احمد (٣)  
٢ - لقبه : يلقب بذى النون (٤) المصرى (٥) وقيل أنه سمى ذو النون لأنه أخرج طفلاً كان تماحا فى النيل كان قد ابتلعه فلما رأى فزع أمه عليه طلب من النيل إخراجه التمساح وشق بطنه وأخرج الطفل سليما فسمى بذى النون تشبهاً بيدينا يونس عليه السلام عليه السلام الذى سمى بذى النون لقمته المعروفة مع الحوت فقد كان لموفينا قصة مع التمساح تشبه قصة يونس مع الحوت .

٣ - كنيته : يكنى أبو الفيض .

- (١) أنظر وفيات الأعيان لابن خليكان ج ١ ص ٢٨١ .  
(٢) أنظر كتب التراجم السابقة ص ١ و ٢ من هذا البحث .  
(٣) محبى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ورقة ٤ .  
(٤) هناك من يطلق عليه أسم ذو النون مثل إسماعيل بن الظاهر بن عبد الرحمن بن ذى النون وهو من قبائل هواره ورأس سلفه من الدولة المارونية وكانت رياسته فى شنترية ثم تغلب على حصن افلنتين ارمان . فتنة الاموية هناك سنة ٤٠٩ هـ - أنظر دائرة المعارف للبيستى ج ٨ ص ١٤٥ .  
(٥) أنظر كتب التراجم السابقة .

٤ - تاريخ مولده : تكرم أستاذنا الدكتور المرحوم محمد مصطفى حلمي في تعليقه على مادة ذى النون بدائرة المعارف الإسلامية <sup>(١)</sup> وأشار الى أنه لا يكاد يذكر أحد من المؤرخين والمترجمين شيئا عن التاريخ الذي كان فيه مولد ذلك الصوفي . كما ذكر أن السيوطي في ترجمته لحياة ذى النون ذكر أن عمره قد قارب التسعين <sup>(٢)</sup> واستطاع أن يستخلص من معرفة تاريخ وفاته ٢٤٥ هـ أنه ولد حوالي سنة ١٥٥ هـ غير أنني وقعت على تاريخ مولده مذكورا في " تاريخ التراث العربي " لفؤاد سزكين الذي قال أنه ولد سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٧ م <sup>(٤)</sup>

#### ٥ - بيئته الخاصة :

ولد ذى النون من أبوين نوبيين في قرية أحميم في صعيد مصر وكان أبوه مولى لاسحق بن محمد الانصارى القرشى وله ثلاثة أخوة ذكور هم : ذو الكفل . وعبدالبارى . وعبدالخالق . وكان ذو النون نحيفا تعلقه حمرة وكانت له لحيه ليست بيضاء الشعر . أولع منذ صغره بطلب العلم وحفظ القرآن كما درس الفقه والحديث والفلسفة والكيمياء القديمة والطب وكان ذو النون شاعرا ومحدثا وكان شقران العابد أستاذا له وشيخه في الطريق . كما كان استاذا آخر يدعى إسراويل . وقد ذكر ذلك السراجي الطوسي في كتابه اللمع وله استاذه تدعى فاطمة النيابورية سيأتي الحديث عنها بعد .

وقد ألم النون بكل أنواع العلوم والمعرفة التي سادت في عصره . وجاء في دائرة المعارف أنه كان مالحا زاهدا عابدا ومن أولياء الله المشهورين وأحد أصحاب الطرق وأكملها في زمانه وكان متفردا في العلم والنوع والإدب والحكمة والفصاحة وكان صاحب كرامات .

(١) د . محمد مصطفى حلمي : تعليق على مادة ذى النون - دائرة المعارف الإسلامية

ج ٤ ص ٤١١ .

(٢) ج ٤ ص ٤١١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤١٢ . وانظر السيوطي - حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٨ .

(٤) ذكر هذا التاريخ أيضا د . أسامه كامل حسن في رسالته عن ذى النون المصري وتوصفه

ص ٢ - رسالة ماجستير تحت اشراف الدكتور ابوالفا التفتازاني .

وكان ذو النون مولعا بالأولياء والمشايخ وكانت لهم بهم صلات قوية ومن أصحابه محمد به على الحافظ الصوفى والذى التقى به فى الاسكندرية وابو عبدالله بن الجلاء الذى قال عن ذى النون : " لقيت ست مائة شيخ مالقيت فيهم مثل أربعة : ذو النون ، وأبى تراب النخسى وأبى عبيد اليرى و أبى " ( أى والده ) (١) . ومن أصحابه أيضا يوسف بن الحسن شيخ اليرى وأبى سعيد الخراط من أهل بغداد المتوفى سنة ٢٧٧ هـ / ٨٨٨ م ومحمد بن طهيل التمشى ( المتوفى سنة ٢٤٥ هـ / ٨٥٦ م ) وغيرهم .

وتد ترك ذى النون قرينته الى القاهرة التى تشير اليها كتب التراجم باسم ( مصر ) وكانت تسمى ( الفسطاط ) وقد روى عبد الرؤوف المناوى سبب تركه لقرينته فى " الكواكب الدرية " قائلا : " إن ذا النون سمع ذات يوم من أيام إقامته باخميم صوت لهو ودفاف . فقال : ما هذا ؟ قيل : عرس . ثم سمع بجانبه بكاء ومياحا . فقال : ما هذا ؟ قيل فلان مات . قال أعطى هؤلاء فما شكروا وابتلى هؤلاء فما صبروا . الله على إن بيت بهذا البلد فخرج فورا الى مصر فقتنها (٢) .

وهذا التصرف منه يدل دلالة واضحة على أنه كان انسانا متزنا متدينا فى شبابه بحكم نشأته فى بيت صالح وبيئة اسلامية . غير أنه لم يكن متجها لسلوك طريق الحوفية حتى ينسى أن اجتابه الله واطلعه على معرفته سبحانه معرفة قلبيه ذوقيه . فكان ذلك دافعا قويا له لسلوك طريق القوم . فبدأ بالتوبة وجاهد نفسه حتى صار صوفيا كاملا . قال تعالى : الله يجتبي إليه من يشاء . ويهدى إليه من ينيب " ( س الشورى آية ١٢ ) فالطريق الصوفى إما أن يبدأ بمجاهدة النفس والتحقق بالرياضات الروحية وامتناع الرياضات العملية حتى تسمو

(١) دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ص ١١٤ . مقاله للدكتور مصطفى حلمى عن ذى النون .

(٢) ج ١ ص ٢٢٢ .

النفس ويصفي القلب ويتحقق السالك بالكمال الأخلاقي ويميل الى التحقق بالمعرفة الذوقية القلبية . وهذا هو الطريق الصاعد . واما أن يبدأ بالمعرفة فيجذبه الله ويطلع على معرفه ذاته العلية من لدنه تعالى دون تعمد منهم أو اكتساب أو اجتهاد ثم بعد ذلك يسلك طريق المجاهدة ويغير من سلوكه ويتحقق بالمقامات والاحوال الصوفية . وهذا هو الطريق الهابط (١)

ويروى شيخنا قمة توبته قائلا : " خرجت من محر إلى بعض القرى فنمت في الطريق . ثم انتبهت وفتحت عيني فإذا انا بقنبرة ( أي طائر ) عمياء سقطت من شجرة على الأرض فإشقت الأرض فخرج منها سكرجتان إحداهما من ذهب والأخرى من فضة ، وفي إحداهما سمم وبالأخرى ماء فأكلت من هذه وشربت من هذه . فقلت حبي !! تبت . ولزمت الباب إلى أن قبلنى " ((٢))

فبعد أن رأى ذى النون بعيني رأسه هذا المشهد الذى أطلع عليه الله كي يجتبيه عرف ربه حق المعرفة وتحقق باليسين الكامل وامتلئ قلبه بنور المعرفة الذوقية اليقينية . وبذلك يكون قد سلك الطريق الهابط الذى يبدأ بالمعرفة الالهية ثم ينتهى بالمجاهدة ومنذ تلك اللحظة صار ذو النون فى الطريق الصوفى وسلوكه كما سبق أن ذكرنا على يد شيخه شقران العابد ويقول ذو النون : " كنت شابا صاحب لهو ولعب ثم تبت وتركت ذلك كله " (٣) وهو

يعنى باللهو واللعب قياما على حياة الزهد والتعبد التى عاشها بعد ذلك كما ذكر محيى الدين بن عربى فى الكوكب الدرى، أن له أستاذة تدعى فاطمة النيسابورية ( المتوفاة سنة ٢٢٣ هـ / ٨٢٤ م ) التى قال عنها ذو النون : أنها ولية من أولياء الله وهى أستاذتى وقد تكلمت فى المدق والاحلاص والاحسان وقال لها ذو النون عظيمى فقالت له الزم المدق وجاهد

(١) د.و. التفزازانى - ابن عطاء الله السكندرى وتصفوه ط ٢ ص ٢٨٠ .

(٢) محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٠

(٣) المرجع السابق نفس اللوحة .

نفسك في أفعالك " وكان قد التقى بها في مكة المكرمة وأخذ عنها وتكلم معها في مقامات أهل الولاية <sup>(١)</sup> . ولا شك أن ذي النون قد تعلم منها وأستفاد حتى أنه قال عنها " وهى أستاذتى " .

ويروى محيى الدين ابن عربى ان صوفينا كان أول من تكلم فى طريقتة الصوفية وبرع وسما على المجتهدين فى العبادة ففتح عليه الله فى المعرفة . وظهر عنه فى العلم ما لم تبلغه أفهام أهل وقته فسموه زنديقا . وبعثوا به الى أمير المؤمنين المتوكل العباسى وكان ذلك سنة أربع وأربعين ومائتين <sup>(٢)</sup> .

وقال عنه أبو الفلاح بن العماد <sup>(٣)</sup> : " كان له فصحة وحكمة وشعر وهو أول من تكلم فى مصر فى ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية فانكر عليه فقهاء المالكية ، وعبدالله بن الحكم - وهو كما جاء فى كتاب ( تاريخ التراث العربى " مؤرخا - ووشوا به الى المتوكل الذى اتهمه بالزندقة فاستحضره من مصر الى بغداد مقيدا . كما هاجمته المعتزلة لقوله <sup>(٤)</sup> يقدم القرآن <sup>(٥)</sup> " .

قال ذو النون يروى هذه الحادثة : " لما حُملت الى بغداد رُمى بى مقيدا على سباب السلطان فمرت بى امرأة زمنة ( أى عجوز ) قبل دخولى فقالت لى : إذا دخلت على المتوكل لاتهابه ولا تراه فوقك . ولا تحتج لنفسك ، محقا كنت ، أو متهما . لأتلك إذا هبته سلطه الله عليك . وإن حاججت عن نفسك لم يزدك ذلك إلا وبالا . فإن كنت بريئا ، فادع الله ينتصر لك ولا تنتصر لنفسك فيكلك اليها <sup>(٦)</sup> وقد فعل ذو النون ما نصحتة به العجوز .

(١) ل ١٢٢ ظ - ١٢٣ و .

(٢) محيى الدين بن عربى : الكوكب الدرى ل ١٢٢ .

(٣) شذرات الذهب ص ١٧ .

(٤) فؤاد سزكين ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٥) المرجع السابق نفس الصفحة .

(٦) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢٢ .

ثم يروى ذو النون ما حدث منه بين الخليفة المتوكل قائلًا : " وعندما أدخلوني سلمت على الخليفة فقال لي : ماتقول فيما قيل فيك ؟ فكنت وقل وزيره : هو عندي حقيق بما قيل فيه . ثم قال لي ( أى الخليفة ) لم لاتكلم ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، اذا قلت لا . أكذبت المسلمين فيما قالوا . وان قلت نعم كذبت على نفسى بشئ لا يعلمه الله تعالى منسى . فافعل ماترى ، اننى غير منتصر لنفسى ، فقال أمير المؤمنين : هذا رجل بريء مما قيل فيه (١)

وقد طلب الخليفة من ذى النون ان يعظه فقال له : " يا أمير المؤمنين ، رجل يعلم ان الله خلقه وخلق الجنة من أجله ان طاعه وخلق النار من أجله ان عصاه ، لا يكون على مثل ماروميت به من البدعة ، ولا مثل ما أنتم عليه من الغفلة" ، فخلى عنه وبكى وصار المتوكل يحبه منذ ذلك التاريخ ويقدره ويقول عنه : اذا ذكر اهل الورع فحى هلا بذى النون (٢) .  
وله كراماته الكثيره التى تروىها كتب التراجم والطبقات :

روى ابن جعفر صديق ذى النون قال : " كنت عند ذى النون الممصرى فتذكرنا حديث طاعة الاشياء للاولياء . فقال ذو النون " من الطاعة ان اقول لهذا السرير يدور فى أربع زوايا البيت ، ثم يرجع الى مكانه فيفعل ، فقال : فدار السرير فى اربع زوايا البيت وعاد الى مكانه وكان هناك شاب أخذ يبكى حتى مات فى وقته " (٣) .

وروى ان تقابل اثنان احدهما من اولياء السلطان والآخر من الرعية . فعدا الذى من الرعية عليه ، فكسر ثننه ، فتعلق الجندى بالرجل وقال : بينى وبينك الامير فجازوا بذى النون فقيل لهم اصعدوا الى الشيخ فصعدوا ، فعرفوه ماجرى فأخذ السن المكسورة ثم بلها

(١) محى الدين ابن عربى ، الكوكب الدرى ل ٢١ ٤ .

(٢) المرجع السابق ، نفس اللوحه .

(٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٨٨ .

بريقه وردھا الى فم الرجل فى مكانھا وحرك شفتيه. فتعلقت باذن الله تعالى ، فبقى الرجل يفتش فاهه فلم يجد أسنانه الا سوا،<sup>(١)</sup>

ولامجال لحصر ماروى عن صوفينا من كرامات • أو ماروى هو من كرامات من التقى بهم من اولياء الله الصالحين ، ومن يريد المزيد فى هذا الخصوص فليرجع الى " الرسائل القشيرية " وكتاب " طبقات الصوفية " لعبد الوهاب الشعراوى وغيرها من كتب الطبقات .

٦ - مكانته وعصره وثقافته :

يمكن ان نستخلص مما ذكر عن ذى النون فى كتب التراجم المختلفة انه كان له شأن عظيم ومكانه رفيعة ، فقد استهل ابو نعيم الامبھانى ترجمته بقوله : " العلم المنسى ، والحكم المرفى ، الناطق بالحقائق الفائق للطرائق ، له العبارات الوثيقة والاشعارات الرقيقة ، نظر فعبر ، وذكر فازدجر • أبو الفيض ذو النون ابراهيم المصرى رحمه الله"<sup>(٢)</sup> .

وقال عنه المناوى : " ذو العبارات الوثيقة والاشعارات الرقيقة والمفات الكامنة ، والنفس الغالمة والهمم الجليلة والطريقة المرضية ، والمحاسن الجزيلة المتبعة ، والافعال والاقوال التى لاتخشى منها تبه • زهت به محر وديارها واشرق بنوره ليلا ونهارها"<sup>(٣)</sup> .

كما كان لذى النون مكانة خاصة عند الخليفة المتوكل العباسى كما ذكرنا من قبل ، وقد تأملت هذه المكانة فى نفوس الناس بعد تبرأتهم من الوشاية •

وعن ثقافة ذى النون يقول المرحوم الدكتور ممطفى حلمى ، ان ذى النون كانت له ثقافتان : أحدهما ثقافة علمية دينية ، والاخرى ثقافة علمية دنيوية وان لهاتين الثقافتين أثرهما فى تكوين حياته الروحية •

(١) الرسائل القشيرية : ج ٢ ص ٧١٠ •

(٢) حلية الاولياء ج ١ ص ٢٢١ •

(٣) أنظر المرجع السابق ص ٢٢٢ •

أما الثقافة العلمية الدينية فتبين إذا عرفنا أنه . تلقى علوم الشريعة والحقيقة عن بعض أساتذته حيناً ، وعن طريق الرواية حيناً آخر على اننا لانعرف من أساتذته كما سبق وذكرنا ذلك الا شقران العابد و اسرافيل المغربي ، وفاطمة النيسابورية ، كما انه تأثر وأثر في علماء عصره الذين التقى بهم وخاصة الامام احمد بن حنبل ، وبشر ابن الحافى ، والسرى السقطى ومعروف الكرفى ، وغيره ممن سبق ذكرهم .

وكان ذو النون من رواة الحديث روى عن مالك والليث وابن لهيعة ، والفضل ابن عياض وابن عيينة ، ومسلم الخواص وغيرهم ، وروى عنه الحسن بن مصعب النخعي ، واحمد بن صباح الفيومي ، والطائى وغيرهم .<sup>(١)</sup>

وهكذا كان لشيخنا ثقافته الدينية الواسعة جعلت منه عالماً في الشريعة والتصوف والحديث . وقيل عنه ان أحاديثه كانت ثقة<sup>(٢)</sup> غير ان البعض أشار الى ان أحاديثه ضعيفة وفيها نظر<sup>(٣)</sup> ، ويقول الاستاذ الدكتور محمد مطفي حلمي أن ذا النون ، وان كان عالماً بالحديث ورواية له ، فهو لم يشتغل به الي الحد الذي جعل منه شغله الشاغل ، بل لم يلبث ان انصرف عنه الي الاشتغال بنفسه ، وليس أدل على ذلك من انه سئل : لم لاتشغل في الحديث فأجاب بقوله " للحديث رجال : وشغلى بنفسى استغرق وقتى "<sup>(٤)</sup> . فقد كان يحيا حياة روحية وتحقق بمقامات اهل الطريق ، وكان صاحب مذهب نظرى في التصوف الي جانب ممارسته العملية للتجربة الموقية .

أما الجانب العملى في ثقافة ذى النون فيرجع الى انه كان من الدارسين للطب ، والكيمياء ومن المشتغلين بهما ، وكانت له محنقات في تلك العلوم كما سنرى بعد ، وكان

(١) أنظر عبد الرؤف المناوى : الكواكب الدرية ج ١ ص ٢٢٢ .

(٢) محيي الدين بن عربى : الكوكب الدرى ل ٩ .

(٣) عبد الرؤف المناوى : الكواكب الدرية ج ١ ص ٢٢٢ .

(٤) دائرة المعارف الاسلاميعة ج ٤ ص ٤١٥ .

«الما باللثة الريانية ، ويقال انه وفق في حل بعض الرموز والنقوش المرسومة على  
البرابي التي ادعى ذو النون انه قرأها وحلها» .

عصره : وقد عاش ذو النون في عصر الخلافة العباسية خلال فترة حكم الخلفاء - أبي  
جعفر المنصور - ومحمد المهدي - وموسى الهادي - وهارون الرشيد - ومحمد الأمين - وعبد  
الله المأمون - وأبي اسحق المعتصم - وهارون الواثق - والتوكل بالله . وهم الخلفاء  
الذين حكموا في الفترة ما بين ١٥٥ الى ٢٤٥ . ولم يكن لأحد منهم تأثيرا على ذي النون  
سوى الخليفة الواثق لتمسكه برأى الممتزله في خلق القرآن والخليفة المتوكل الذي حاكم  
ذو النون بتهمة الزندقة ، ثم برأه وأثنى عليه . وكان عصره حافلا بالثقافة وازدهار العلم  
فقد ظهر أئمة الفقه وعلماء الحديث وكثير من مشايخ الصوفية الذين تأثر بهم صوفينا .  
فكان عصره متقدما من الناحية العلمية والروحية والفقهية والادبية والعلمية ، وكان لذلك  
أثره على كل علماء وأدباء وفقهاء وصوفية هذا العصر . بما فيهم ذو النون .

وكان لذى النون سياحات زادت من ثقافته وعلمه داخل مصر وخارجها ، في صعيد مصر  
والفسطاط وجبل المقطم والاسكندرية وتيه بنى اسرائيل بسينا ، وبيت المقدس ودمشق  
وبغداد ومكة وأنطاكية وجبال الكام ، ووادي كنعان وجبال نيمان (١) . وكان في كل موطن  
ينزل به يلتقى برجال الطريق يأخذ منهم ويأخذوه عنهم .

وقد كان لذى النون تلاميذه الذين أخذوا عنه منهم ، يوسف ابن الحسين الرازي (العتوفي  
سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٢ م) الذي اتصل به واستمع اليه واخذ عنه (٢) .

(١) ابن عربي - الكوكب الدرر في مناقب ذي النون العمري - ل ١٨ -

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ج ٤ ، ص ٤١٨ ، مقالة الدكتور محمد مصطفى حلمي .

(١) لما كان له تلميذ في الكيمياء هو عثمان بن سويد أبو حري الاخميمي

٢- وفاته وقبـره :

اختلفت التراجم حول تاريخ وفاته: فجاء في " شذرات الذهب " <sup>(٢)</sup> لأبن العماد أنه توفي سنة ٢٤٤ هـ وجاء في " الاعلام " للزركلى انه توفي سنة ٢٤٥ هـ ، أما فؤاد سزكيسن ذكر انه توفي ٢٤٦ هـ / ٨٦١ م ، وذكر انه ولد ١٨٠ هـ / ٧٩٧ <sup>(٤)</sup> ، أى انه عاش حسب ذلك ٦٦ سنة فقط وليس ٩٠ ، كما جاء في دائرة المعارف الاسلامية <sup>(٥)</sup> ، نقلا عن السيوطي <sup>(٦)</sup> لذي قال في ترجمته انه قارب التسعين وانه توفي سنة ٢٤٥ هـ . وقيل انه توفي سنة ٢٤٦ هـ . وقيل سنة ٤٨ هـ <sup>(٧)</sup> وفي ترجمة محى الدين ابن عربى له أورد جميع هذه التواريخ السابقة يقال ان من أرخو لذي النون ، وذكروا تلك التواريخ المختلفة التى تتراوح ما بين سنة ٢٤٤ هـ لى سنة ٢٤٨ هـ ، وقال انه توفي يوم الاثنين ليلتين خلتا من ذى القعدة سنة ست وأربعين مائتين <sup>(٨)</sup> والارجح انه توفي فى سنة ٢٥٤ هـ / ٨٥٩ م فهذا التاريخ قد أجمعت عليه أغلب كتب التراجم والطبقات .

وقال عنه عبد الوهاب الشعرانى ( المتوفى سنة ٩٢٣هـ / ١٥٦٥ م ) فى طبقاته الكبرى انه توفي بالجيزة وحمل الى قارب ( ليعبر النيل ) الى الضفة الاخرى ، مخافة ان ينقطع الجسر ( كوبرى قصر النيل حاليا ) من كثرة الناس فى جنازته . ورأى الناس طيورا خضراء على

(١) الرسالة القشيرية ج ١ ص ٢٥٩ .

(٢) ص ١٧ مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٠ هـ .

(٣) ط ٢ ص ٨٢ ، القاهرة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م كما ذكر هذا التاريخ أيضا اسماعيل - هديسة العارفين ص ٢٤٩ .

(٤) تاريخ التراث العربى ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٥) د . محمد محطى حلمى تعليق على مادة ذى النون ج ٤ ص ٤١٢ .

(٦) السيوطى - حسن العشره ج ١ ص ٢١٨ .

(٧) ابن عربى - الكوكب الدرى - ل ٨٠ .

(٨) المرجع السابق ، نفس اللوحه .

جنازته حتى وصلوا الى قبره . ودفن بالقبرافه الوسطى فى مقابر اهل النفير بالفسطاط  
 المكتب حديقاً عن ذى النون :

الى جانب ما ذكرنا من كتب التراجم والطبقات والمستشرقين التى تناولت سيرة ذى  
 النون ومذهبه فى هامش الصفحة الاولى والثانية ومن هذا البحث فهناك اباحث حديثه تناولت  
 سيرة ذى النون ونصوفه . نذكر اهمها .

١ - مقاله للمرحوم الدكتور محمد محطى حلمى بدائرة المعارف الاسلامية المترجمة  
 العربية تعليق على مادة ذى النون تناول فيها سيرته وحياته ومذهبه الصوفى وهى مقاله قيمة  
 ساهمت فى وضع الخطوط العريضة أمام الباحثين فى ذى النون المصرى ونصوفه الجزء الرابع  
 تشغل من ص ٤٠٩ الى ص ٤٢٠ .

٢ - رسالة ماجستير بعنوان " ذى النون المصرى ونصوفه " مقدمة من اسامة كامل حسن سنة  
 ١٩٧٦ - تحت إشراف الدكتور أو الوفا الغنيمى التفتازانى وهى رساله قيمه وبها جهد لاينكر  
 ولاشك أن هناك دراسات أخرى قد تعرضت لذى النون المصرى فهو شخصية مصرية رائدة لها  
 ثقلها فى التصرف الاسلامى لحامة والتصرف المصرى بخاصة .

#### محفقات ذى النون :

قد لا حظت من خلال بحثى عن ممنات ذى  
 النون أن منها ما يوجد فى المانيا ما يوجد فى مكتبات فرنسا  
 ومكتبات بريطانيا والهند وتركيا وسوريا والسنگال وغيرها من مكتبات العالم كما لاحظت  
 أن اغلب محفقاته فى الكمياء ويطلق عليها " الحنعة الكريمة " وبعضها فى الطب والمحرر  
 وبعضها فى الحديث ومنها أدعيه ومنها ما يتناول الاخلاق الدينية والتصرف . وان مذهب  
 الصوفى لايجمعة ممنف بعينه وإنما هو مبثر هنا وهناك فى كتب التراجم التى أهمها ما  
 كتبه عنه الصوفى الكبير محى الدين بن عربى فى " الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى " (١)

(١) أرجع الى هامش المفحات الاولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلك  
 المحفقات وانظر أيضاً .

وماكتبه عنه الحافظ السيوطي في " السر المكنون في مناقب ذي النون" (١) . وماكتبه  
منه ابو نعيم الاصبهاني في " حلية الاولياء " (٢) ، هذا الى جانب ما جاء في كتب التراجم التي  
ذكرت في اول البحث . والحقيقة انه لا يخلو كتاب من كتب الطبقات والتراجم القديمة الا  
ويذكر صوفينا في سطور تقل وتكثر من محنف لآخر .

ولقد عبر ذو النون في كثيرا من الاحيان عن مذهبه الصوفي بالشعر ، فقد كان صوفينا  
شاعرا . كما انه الف قصيدة في الكمياء وسيأتي الحديث عنها .

والحقيقة ان كل الدراسات التي تناولت ذي النون ومذهبه الصوفي ، تعد ناقصة بما  
اقبها هذا البحث وذلك لسبب هام وهو ان ماكتبه ذو النون نفسه عن سيرته وتصوفه غير  
متوفر في مصر ولا تصل اليه أيدي الباحثين فمعلوماتنا عن محتويات مصنفاته على الاقل  
ووصفنا لها يتطلب الحصول عليها وحتى يكون العمل مكتمل لابد من جمع تلك المصنفات  
من مكتبات العالم وتحقيقها وأخرجها الى النور وهذا يتطلب جهدا ووقتا وتكلفه قد  
لا تيسر لأغلب الباحثين . والجزاء الوحيد لذلك ان ما استندت عليه من المصادر المتوفرة  
والتي امكن الحصول عليها أمكن عن طريقها تبين سرته ومذهبه الصوفي وهي مصادر قديمة  
موثوق فيها . أما المصنفات فاني اكرر انها في حاجة الى السفر للخارج لجمعها أو تصويرها  
والحصول عليها بأي وسيلة ممكنة .

وواضح انه من الصعوبة بمكان عمل تصنيف زمني لمصنفات ذي النون أو تصنيف أبجدي  
لها . وكل ما أستطيعه هو عمل تصنيف بحسب الموضوعات وقد رأيت ان يكون التصنيف  
لمؤلفاته في العلوم العملية كالطب والكيمياء . ومصنفاته في العلوم النظرية كالتمصوف  
والحديث والاخلاق الدينية .

(١) ارجع الى هامش الصفحات الاولى من هذا البحث لمعرفة مزيد من التفاصيل عن تلك  
المصنفات وانظر ايضا بروكلمان ملحق ١ ص ٢٥٢ .  
(٢) انظر ج ٩ ، في ١٠ صفحات متفرقة .

أولا : محنفاته في العلوم العملية :

(١) كتاب المجربات : يضم وصفات في الطب والكيمياء والسحر والطلاسم . مكتبة

باريس ٢٦٠٨ مكون من ٩١ ورقة كتب سنة ١٠٠٠ هـ . أتظر فجدا ٠٤٨٩ .

(٢) قصيدة . في المنعة الكريمة (٢) : توجد منها نسخة بمكتبة باريس ٤/٢٦٠٩

( من ورقة ٤٢ - ٥١ ) كتبت في القرن الحادى عشر الهجرى . أنظر فجدا ٧١٢ ، ونسخه  
بالمتحف البريطانى ، ٦٠١ ، الاضافات ٤/٧٥٩٠ / ( من ورقة ٨٥ - ٩٠ ) . كتبت سنة ١٢٠٦ هـ  
ونسخة مسمورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة ٤/٤/٤٦ ، ونسخة في مكتبة بودليان  
٢٥٠/٢ رقم ٥٢٨ ( من ورقة ١٥٠ - ١٥١ ) ، ونسخة بمكتبة جار الله ٢/٢١٣٠ ( من ٢٢٥ ب -  
٣٦ أ ) كتبت في القرن العاشر الهجرى . ونسخة بمكتبة بشير ايما ٦٤٩ ( من ٣٢ أ - ٣٣ ب )  
قرن عاشر هجرى ، ونسخة بمكتبة باريس ٥٠٩٩ ( من ورقة ١٨١ - ١٨٣ ) القرن العاشر الهجرى  
أنظر فيجدا ٧١٢ .

وقد قامت على هذه القصيدة شروح كثيرة هي :-

أ - الدر المكنون في شرح قصيدة ذى النون - تأليف ابن على الجلدكى المتوفى سنة

٧٤٢ هـ / ١٣٤٢ م ، أنظر دار الكتب بالقاهرة ٣٩٣/٥ ، كيمياء ٢٠ وهى ( من ورقة ١ - ٤٣ )

ومنها نسخ متعددة من مكتبات مختلفة منها حاجى محمود ٦٢٢٥ - جار الله ٧/١٧٠٢

من ورقة ٦٨ - ٩٩ ) وكذلك ٢/٢٠٦٥ ( من ورقة ١٧ أ - ٣٤ ) كتبت في القرن الحادى عشر

الهجرى - أسعد ١٩٣٢ ( من ورقة ٣٣٧ أ - ٢٤٧ ب ) كتبت سنة ٧٤٢ هـ - فاتح ٤/٣٢٢٧

(١) فؤاد سزگين ج ٢ ص ٤٤٤ ، ذكره بروكلمان ملحق ١ ص ٢٥٣ .

(٢) المنعة الكريمة ، يقصد بها الكيمياء ، وقد ذكر هذه القصيدة في بروكلمان

ملحق ١ ص ٢٥٣ وفؤاد سزگين ج ٢ ص ٤٤٤ .

ب - ولهذه القميدة شرح آخر قام به أحمد بن عامر الهمداني الحاشدي (كتبه سنة ١٤٥٥/١٤٥١م) فاتيكان، فيدا ٢/١٠٤٣ (من ورقة ٦٦ - ٨١ - أصفه ١٤١٦/٢ - كنيا، ٠٢٦

٣ - رسالة في العناصر الثلاثة<sup>(١)</sup> : وهي باللغة الفارسية ، رأى احمد الثالث ٢٠٧٥ (من ورقة ٧٦ب - ١٧٩ ) .

٤ - رسالة في خواص الاكسير<sup>(٢)</sup> : فاتح ٥/٥٣٠٩ (من ورقة ١٠٥ - ١٠٩ ) القرن العاشر الهجرى .

٥ - رسالة في الحجر<sup>(٣)</sup> : أولها "يؤخذ الحجر الكريم عند نزول الشمس ٠٠٠٠ الخ " حاجى محمود ٩/٤٢٢٤ ( من ٥٤ب - ٥٧ ب ) القرن الثالث عشر الهجرى .

٦ - رسالة في المنعة<sup>(٤)</sup> : أولها : " اذا احببت التدبير ٠٠٠٠ الخ " حاجى محمود ١٣/٤٢٢٤ (من ورقة ٦٤ ب - ٦٧ أ ) القرن الثالث عشر الهجرى .

٧ - رسالة الثقة في المنعة<sup>(٥)</sup> : المخطوط السابق (من ٦٧ أ - ٦٧ ب ) .

٨ - رسالة في الحكمة العظمى والمنعة المباركة<sup>(٦)</sup> : أولها : " أعلم ان تدبير (مدبر )

الفلاسفة ليس يشتري بثمن " ، جازيت ٩٤٧ ( ١٥ ورقة ) القرن التاسع الهجرى .

(١) بروكلمان : ملحق ١ ص ٢٥٨ ، وانظر فؤاد سزكين ج٢ ص ٤٤٦ .

(٢) المرجعان السابقان نفس الصفحات .

(٣) المرجعان السابقان نفس الصفحات .

(٤) المرجعان السابقان نفس الصفحات .

(٥) المرجعان السابقان نفس الصفحات .

(٦) المرجعان السابقان نفس الصفحات .

الفلاسفة ليس يشتري بثمن " ، جازيت ٩٤٧ ( ١٥ ورقة ) القرن التاسع الهجرى .

٩- رسالة فى تدبير الحجر الكريم <sup>(١)</sup> : أولها : قال ذو النور لتلميذه فى تدبير

الحجر ٠٠٠ الخ " حاجى محمود ٨/٤٢٢٤ ( من ورقة ٤٩ أ - ٥٤ ب ) القرن الثالث الهجرى .

ثانيا : مؤلفاته فى التصوف والأخلاق الدينية والحديث :

(١) رسالة فى ذكر مناقب الصالحين <sup>(٢)</sup> : أمفيه ١٢/١ ، أخلاق ٠٣٢ .

(٢) دعاء <sup>(٣)</sup> : رامبور ١/٣٢٧ ، دعاء ٢٩٢ ( ٢٧ ورقة ) .

(٣) صفة المؤمن والمؤمنة <sup>(٤)</sup> : مكتبة الظاهرية ، مجاميع ١١/٨٧ .

(٤) له عدد من الاقاصيص التربوية بمكتبة برلين ٤٣٤٧ : الاوراق من ٤٦ ب - ٦٩ أ ) .

القرن الحادى عشر الهجرى .

(٥) رسالة تتناول أقواله والاحاديث التى رواها مع موجز لحياته ، مكتبة برلين ١٣٩٧

الاوراق من ٥٦ - ٦٠ ) سنة ٨٧٨ هـ .

ويذكر فؤاد سزكين انه ينسب اليه كتاب يسمى " كتاب العجائب " غير ان نسبه

غير مؤكدة - دار الكتب القاهرة يحمل رقم ٢٠ كمياء حرف م ق أ ومنه نسخة مصورة فى برلين

وقد أثبت الباحث اسامه كامل حسن صحة هذا القول وأثبت ان هذه الرسالة ليست لزي النون

وأوضح ذلك بالادلة القاطعة ، كما اشار سزكين فى الهامش <sup>(٥)</sup> الى انه ليس لديه معلومات <sup>(٦)</sup>

عن رسالة الكمياء وهى مخطوط بمكتبة اصفية فى الهند ١٤١٦/٣ - كمياء ٠٢٤ .

(١) بروكلمين : ملحق ١ ص ٣٥٨ . وانظر فؤاد سزكين ج٢ ص ٤٤٦ .

(٢) المرجعين السابقين نفس الصفحات .

(٣) المرجعين السابقين نفس الصفحات .

(٤) المرجعين السابقين نفس الصفحات .

(٥) انظر رسالته عن ذو النون المصرى وتصوفه ص ١٨ ، ١٩ تحت اشراف د . التفتزاني .

(٦) انظر فؤاد سزكين ، تاريخ التراث العربى ج٢ ص ٤٤٦ .

وذكر انه لابد من بحث الرسالة التي ألفها ذو النون وشرحها الجلدكي بعنوان " السر المصون في شرح رسالة ذي النون " المتحف البريطاني مخطوطات شرقية ١٢١٤٩ (١) ، كما ذكر له ابن النديم في الفهرست كتاب باسم " الركن الاكبر " (٢) ، وكذلك ذكر في " هدية العارفين " (٣) .

### مذهب ذي النون الصوفي

ان ذا النون المصري وغيره من الصوفية الملتزمين بالكتاب والسنة قد بنوا قواعد أمرهم على اصول صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم من البدع وتمسكوا بما كان عليه السلف الصالح من التوحيد الخالص . وكان ذو النون في مذهبه الصوفي سلفيا ملتزما رغم ماوجه اليه من اتهامات بانه زنديق . فقد كان يخشى المحظورات ولم يكن عنده تمثيل ولا تعطيل ولم يقل بالانحدار . بل انحدار أو وحدة الوجود أو وحدة الشهود وانما كان تصوفه خال من الشطحات وتلك كما سبق القول هي سعة التصوف المصري السني . وقد سئل عن التوحيد فقال " التوحيد هو ان تعلم ان قدرة الله تعالى في الاشياء بلا مزاج وصنعه للاشياء بلا علاج وعلة كل شيء صنعه . ولا علة لصنعه ، وليس في السماوات العلا ولا في الارضيين السفلى مدبر غير الله . وكل ما تصور في وهمك فإله بخلاف ذلك " (٤) . ويتضح من هذا النص ان صوفينا لم يقل بالحلول أو الاتحاد ، وانما هو يؤمن ان الله واحد متعال خالق مبدع بلا مزاج وانه خلق الكون ومدبره دون منازع وانه تعالى لا يدرك بالاذهان ولا تتصوره الاوهام فهو بخلاف كل تصور يتصوره الانسان .

(١) انظر هامش ص ٤٤٧ في الجزء الثاني من كتاب سزكين .

(٢) انظر ص ١٥٧ .

(٣) انظر المجلد الاول ص ٢٤٩ .

(٤) محي الدين بن عربي : الكوكب الدرر ، ص ٤٥ .

ويقول في شعره :

رب تعالى فلا شيء يحيط به .. وهو المحيط بنا في كل مرتمد  
لا الاين والحيث والكيف يدركه .. ولا يجد بمقدار ولا أمــــل  
وكيف يدركه حد ولم تــــره .. عين وليس له في المثل من احد  
أم كيف يبطنه وهم بلاشبهه .. وقد تعالى عن الاشباه والولد  
من أنشأ قبل الكون مبتدعا .. من غير شيء قديم كان في الابد  
ودهر الدهر بالاوقات واختلفت .. بما يشاء فلم ينقص ولم يزد

الكون

(١) وكان له نظرية في مجاهدة النفس وفي المحبة والمعرفة وهذا ما سنعرض له .

وسيتضح لنا بجلاء من عرض مذهب ذي النون الصوفي انه كان صوفيا ملتزما بالشرعية فـى

تصوفه ، ويربط ذو النون بين الحقيقة والشرعية أو بين علم الباطن وعلم الظاهر ويرى انهما

أساس التوحيد مع التسليم لله سبحانه مقدر كل شيء ، والذي بيده النفع والضر . وقال :

" من لا يعلم علم التوحيد لا يفهم التشبيه من التعطيل ، ومن لم يعلم علم الظاهر لا يفهم

الحلال من الحرام ، ومن لم يعلم علم الباطن لا يصفو له العمل ولا يقدر على الاخلاص .

(٢) والتوحيد ، ان يعلم ان النفع والضر والعطاء والمنع والعز والذل بيد الله . ويبدأ مذهبه

بمجاهدة النفس .

(١) مجاهدة النفس:

ان مجاهدة النفس والخلق الحسن من الامور التي حث عليها الله عباده وطالبهم

بالالتزام بها في مثل قوله تعالى: " والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ان الله لم يسمع

المحسنين " ، ( س العنكبوت آيه ٦٩ ) وهي صفة الرسول الكريم ( ص ) الذي اعتبر الجهاد

ضد الاعداء ، هو الجهاد الاصغر وجهاد النفس هو الجهاد الاكبر لأنه جهاد الانسان ضد

نفسه ، لينقيها وينقحها من الاخلاق السيئة والاستسلام للاهواء والشهوات فهي أمراض تصيب

(١) أبو نعيم الاصبهاني: " حلية الاولياء " ج ٩ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

(٢) محي الدين ابن عربي: - الكوكب الدرر في مناقب ذي النون المصري - ل ٤٧٠ .

النفس الانسانية الضعيفة وعلى الانسان ان يجاهد لمداواة نفسه من أدران الرذيلة والخبائث .  
قال تعالى: " قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها " (س الشمس آية ٩) .

ويقول صوفينا في مجاهدة النفس: " ليس بذى لب من جد فى أمر دنياه وتهاون فى  
أمر آخرته ، ولا من سفه فى مواطن حلمه ، ولا من تكبر فى مواضع تواضعه ، ولا من فقد منه  
التقوى فى مواطن طمعه ، ولا من غضب من حق اذا قيل له ، ولا من زهد فى ما رغب العقلاء  
فيه ، ولا من رغب فيما يزهّد العقلاء فيه ، ولا من طلب الانصراف عن غيره لنفسه ، ولا من  
نسى الله فى مواطن طاعته وذكر الله فى مواطن الحاجة اليه ، ولا من جمع العلم ليعرف به  
ثم أثر عليه هواه بعد تعلمه ، ولا من قل منه الحياء من الله على جميل ستره ، ولا من أغفل  
الشكر على اظهار النعمة ، ولا من عجز عن مجاهدة عدوه ، ولا من جعل مرونة لباسه ولم  
يجعل أدبه درعه ، ولا تقواه لباسه ، ولا من جعل علمه ومعرفته نظرفا وتزينا فى مجلسه (١) .

وقد أبان ذو النون فى هذا النص عن الآفات التى يجاهد الانسان نفسه فى التخلص  
منها وهى تتلخص فى: حب الدنيا ، وترك الآخرة ، وعدم الصبر ، والنرور والكبر ، وطمع  
النفس الذى ينسى صاحبه تقوى الله ، والغضب من الحق اذا قيل له ، والزهد فيما يقبل عليه  
العقلاء من العبادات ، والخير والطاعة ، والاقبال على ما يزهّدوا فيه ، والانانية ، والغفلة  
عن الله فى السراء وعدم ذكر الله فى السراء واساءة استخدام العلم ، وعدم الحياء من الله  
والغفلة عن شكره على نعمه ، والثّقاغص عن مواجهة العدو والتباهى بفاخر الثياب دون تقوى  
الله ، والتفاخر بالعلم فى المجالس ، ومجاهدة النفس بالحلاة والصوم والذكر والسماع  
والعزلة والخلوة ، وغيرها من الرياضات التى ترفق القلب وتعذب النفس وتبعث على الوجد  
والتأمل والتفكر فى الله ، كما يمطنع السالك رياضات روحية لتهديب نفسه وتبديل عفاتنها

(١) محى الدين ابن عربى : - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى - ل ٥٠ و٦

الذميمة بصفات حميدة فيتحقق بالتوبة والزهد والصبر والتوكل والصدق والمحبة ومحاسبة النفس ومراقبتها والاحسان والتقوى والشكر والرضا والاستقامة والاخلاص وغيرها من المقامات الصوفية حتى يصل الى اعلى الدرجات . ويتحقق بالكمال الخلقى وتطهر روحه ويمفو قلبه ويتهبأ لمعرفة الله معرفة ذوقية كشفية ، ويصير صوفيا متحققا عارفا بالله ولذلك عرف شيخنا الصوفى بقوله : " الصوفى من اذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وان سكت بطلت عنه جوارحه بقطع العلائق"<sup>(١)</sup> ، وهذا يعنى ان الصوفى انسان صفى قلبه من كسودرات الشهوة والهوى<sup>(٢)</sup> وتعلق قلبه بالله حتى استنار بنور الله سره وكشف الله له عن الحقائق المدركة فى عالم الغيب فعرف الذات الالهيه وصفاتها واسماؤها وافعالها . وعرف معنى العرش والكرسى والروح والملائكة ، وحقائق الموجودات فى عالم الغيب والشهادة ، وعرف ترتيب الاكوان معرفة ذوقية من لدن الله ، مما جعله اذا نطق أبان عن تلك الحقائق ، وان سكت كان مع الله متأملا متفكرا ذاكرا له بروحه وسره متجها اليه تعالى بكل جوارحه ، وصار فى حال اتصال روحى بالله وقطع العلائق بما حوله وفنى عن نفسه وبقي بالله لا يشهد غيره فبدى ذلك على جوارحه مع لزومه الصمت والكون .

ولم يكن شيخنا اول من عرف الصوفى والتصوف فقد سبقه الى ذلك معروف الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ هـ ، ويقال انه اول من عرف التصوف بقوله : " التصوف هو الاخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدي الخلائق"<sup>(٣)</sup> وهو يعنى ان التصوف يصل بالسالكين الى الحضرة الالهيه فينهلون من المعرفة النورية ويطلعهم الله على الحقائق الذوقية . وهو

(١) السلمى : طبقات الصوفية ص ١٠ .

(٢) الهوى هو ما تهواه نفس الانسان من امور معنوية كالمناصب القيادية وحب الرياسة والظهور ، أما الشهوات فهى ما تشتهيه النفس من لذات حسيه كالمأكل والمشرب والملبس وغيرها .

(٣) الرسالة القشيرية ، ص ١٢ طبعة صبيح ص ١٢ .

وهو عنده ايضاً الزهد فيما عند الناس ، فالصوفي الحق هو من يزهد فيما عند الله ويحبه الله ويذهب فيما في ايدي الناس فيحبه الناس .

وقال ذو النون ايضاً : " الصوفية أثروا الله تعالى على كل شيء فآثرهم الله على كل شيء فكان من اثارهم ان آثروا علم الله على علم نفوسهم وارادة الله على ارادة نفوسهم" (١) .  
ويوصي صوفينا المرید في بداية الطريق قائلاً " يا أخى وميتك بالتقوى اللعة العظیم والمراقبة له ، حيث لا يراك احد الا الله واجتهد الى خلع قناع الغافلين وانتهى من رقعدة الموت ، وفر الى السباق في ميدان السابقين ولا تفتقر عن الله" (٢) فعلى السالك الطريق الى الله ان يخلع قناع الغفلة ويفر الى الله ليصل اليه ويصير من الواصلين .

ولا يصل الصوفي الى تلك المنزلة الا بعد ان يعبر طريق طويل في سبيل مجاهدة نفسه ومحاربة الشر فيها وتزكية الخير ، حتى تهذب وتسمو وتصفو ، ولا يتأتى لها ذلك الا بالاقبال على العبادات والطاعات ، واجتناب التعلق باللذات الحسية والتقرب الى الله والانصراف عما يشغل عنه . ويقول ابن خلدون في مقدمته : " الاصل في التصوف هو العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذه ، ومال ، وجاه" (٣) ، وبذا يتحقق للسالك ضبط النفس وكبح جماحها ومقاومة ميولها الشريرة وصرافها بالارادة والعزيمة عن متع الحياة الدنيا التي تشغل الانسان عن التقرب من ربه فيتم لها الصفاء والتطهر من اضرار الشهوة الجسدية والهوى النفسى بتلخير أهلا لتقبل الفيوضات الربانية .

- (١) السهروردي : عوارف اعارف على هامش احياء علوم الدين للغزالي ج١ ص ٣١٩ .
- (٢) ابن عربي : الكوكب الدرر في مناقب ذي النون المصري ، ل ٤٢ .
- (٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٨٦ .

ويحدثنا القشيري في رسالته عن الصوفية قائلا : " هذه الطائفة صفوة أولياء الله جعل قلوبهم معادن أزراره واختصم من بين الامة بطوالع أنواره ، فهم النيات للخلساق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق . صفاهم من كدورات البشرية . ورقاهم الى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الاحدية ووقفهم للقيام بأداب العبودية وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية . فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكيف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التغلب والتصريف ، ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى ، بصدق الاقتضار ولفلت الانكسار ، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الاعمال ، وصفا لهم من الاحوال ، علما منهم بأنه جل وعلا يفعل ما يريد ، ويختار من يشاء " (١) .

وحقيقة مذهب ذو النون الصوفى فى مجاهدة النفس - وهو كما يقول مدار كـلام الصوفية جميعا - يقول على اربعة امور هي :

(١) حب الجليل (٢) بغض القليل (٣) اتباع التنزيل (٤) خوف التحويل .

- والركن الاول من اركان مجاهدة النفس عنده يقوم كما هو واضح على حب الله سبحانه - جلا جلاله وحب الجليل من الاعمال والاقوال والتمرفات الصالحة التى ارتضاها اللى لعباده المقربين والثى تزيدهم منه قربا وتزيده سبحانه حبا لهم . فحب الله وطاعته هي اول ركن من اركان مجاهدة النفس عند صوفينا .

- والركن الثانى من اركان مجاهدة النفس هو " بغض القليل " من الطاعات والعبادات والاعمال الصالحة ، فمن يريد ان يسلك طريق الصوفية لايقف بالقليل من العبادات والاعمال التى تقربه الى الله سبحانه ، وانما يكون محبا للاكثار منها . . ومهما أدى من طاعات وقربات لله فهو يستنعمها ويشعر انه مقصر فى حق الله وان اعماله لاتساوى شيئا ولاتعادل ما انعم الله عليه به من نعم متعددة .

(١) الرسالة القشيرية ص ٢ طبعة صبيح ابن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون

وإذا أكثر الانسان من الطاعات كف عن المعاصى وبذلك يتغلب نفسه المطمئنة على نفسه الامارة بالسوء ويفلح في كَفِّ هوى نفسه وانقيادها للشهوات الجسدية وبذلك تضعف بشريته وتقوى روحانيته ويمير أهلا للاتصال الروحي بالله عز وجل .

- الركن الثالث من اركان مجاهدة النفس عند شيخنا هو : " اتباع التنزيل " وهذا يعنى ان المرید الصادق فى احواله والصادق مع الله فى عبادته والتقرب اليه يجب ان يتمسك بكتاب الله وسنة رسوله الكريم ويلتزم بهما فى كل اعماله واقواله وتصرفاته . وهو يقول : " من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى اخلاقه وافعاله واوامره وسنته " (١) .

ويعتبر شيخنا ان اكثر الناس هما هم اقلهم خلقا وان اكثر الناس سعادة هم اكثرهم خلقا ، ويقوم القشيري فى رسالته : " قيل لذى النون المصرى : من اكثر الناس هما ؟ قال أسوأهم خلقا " (٢) .

ويذهب ذو النون الى ان الساعى الى الله بقلب سليم عليه ان يصحب الله سبحانه بالموافقة أى لايقترف من المعاصى والمخالفات ما يغضب الله تعالى : ويصحب الخلق بالمناصحة ، فيقدم لهم النصح والارشاد فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويصحب نفسه بالمخالفة ، فلا يتقاد لها ولامتسلم لما تأمره به من ارتكاب المعاصى والانغماس فى تحقيق اللذات والشهوات واتباع الهوى ، فيقودها الى طريق الخير ، ويصحب الشيطان بالعداوة ، فيكون له عدوا مبينا فلا يطيعه ولاينقاد له ، ويستعيذ بالله منه ، ويستعين عليه بالتقرب الى الله والاكثر من التعبد والطاعة له . يقول ذو النون : " لاتصحب مع الله الا بالموافقة ولامع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان

(١) محى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ٤٢ .  
الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٨٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

ويرى شيخنا ان من جد في طريقه الى الله بهمه صادقه وعزيمة لاتلين ، فانه يجد الله امامه منذ بداية سعيه المخلص في الوصول اليه تعالى : ويقول في ذلك : " أول قدم تطلبه ، تدركه وتجده " (١) . وهذا يعنى ان اول خطوة يخطوها السالك فى الطريق السبى الحخرة الالهية سجد الله امامه معيناً له تمثيلاً مع قول الرسول الكريم ( ص ) : " اطلب الله تجده امامك " ومع قوله تالله تعالى : " واذا سألك عبادى عنى فانى قريب اجيب دعوة الداعى اذا دعان " ( س البقره آيه ١٨٦ ) .

- والركن الرابع من اركان مذهب صوفينا فى مجاهدة النفس هو " خوف التحويل " فالسالك طريق الصوفية يظل دائماً فى خوف من ان يتحول قلبه او تفتر عزمته فى مجاهدة نفسه أو يغفل عن ربه لحظة او يتكاسل عن اداء العبادات والطاعات أو ينشغل عن الله بامور الدنيا فلا بد ان يراقب نفسه وان يحاسبها وان يحرم دائماً على مواصلة السعى الى الله تعالى والتقرب اليه بحسن الافتقار وحسن العبودية ومدق اليقين ، وهذا ما سيتضح تفصيلاً فى الحديث عن مقام الخوف عند ذى النون .

وقد قال ذو النون : " اذا خرج المرید عن استعمال الادب فانه يرفع من حيث أتى " (٢) فاللصوفيه آداب واخلاق يجب على من يريد السير فى الطريق الصوفى الالتزام بها والاتعش عن السير فى الطريق .

وعلامه القلب المريض عند شيخنا أربعة اشياء :-

- أ - لا يجد للطاعة حلاوة  
ب - ولا يخاف من الله  
ب - ولا ينظر الى الاشياء بالعبرة  
د - ولا ينال من العلم الا ما تأدب به (٤)

(١) السلمى - طبقات الصوفية ص ١٢ - الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٨٧ .  
(٢) شرح الكرماني ٢٢ : ١٨٣ - فتح الباري لابن حجر ١١ : ١٧٢ - عمدة القارىء للعيني وأخرجه مسلم فى الذكر والدعاء والبخارى فى الدعاء ٢ : ٣٣٦ .  
(٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٦٣ .  
(٤) ابن عربى - الكوكب الدرى - ل ٤٣ .

وصاحب هذا القلب لابد له من العمل على تزكيته وتطهيره حتى يصفو فيجد للطاعة حلاوة ويخشى الله. ويعتبر من كل شيء، ويطلب العلم اللدني والمعرفة الحقة .

والانسان العاقل عند شيخنا هو الذي يدرك كل مستحسن من الاخلاق وكل جميل من الصفات، فيسعى في تحصيلها والتمتع بها ويقول: " لما خلق الله العقل جعل فيه لطيفة تميله إلى كل جميل " (١)

والارادة عند صوفينا هي بوابة الطريق الذي يسلكه المرید إلى الله فهو يذهب إلى أن المرید الصادق هو من يلقى علماء الدين ومشايخ الصوفيه بالجهل ويرى في نفسه أنه أقل منهم علما وأنه في حاجة إلى ما لديهم من علوم ومعارف . وأن يتطلع إلى الأخذ عنهم والاستفادة بعلمهم والانصات لهم والتلمذ على ايديهم . ويلقى الزهاد بالرغبة في أن يكون زاهدا مثلهم مقتديا بهم . ويلقى أهل المعرفة بالمصمت أي لا يتحدث في حضرتهم بل يلتزم الصمت حتى يسمع منهم ويتعلم على معارفهم تأدبا معهم ، واحتراما لمكانتهم ، وحباً في مصابحتهم والاستقاء من معارفهم الربانية وعلومهم الكشفية ويقول في ذلك : " يامعشر المریدين من أراد منكم الطريق فليلق العلماء بالجهل ، والزهاد بالرغبة ، وأهل العلم بالصمت " (٢)

ويحكى عن ذي النون أنه رأى ببعض سواحل الشام امرأة فقال لها : من أين أقيبت ؟ قالت : من عند قوم تتجافى جنوبهم عن المضاجع . فقال : وأين تذهبين ؟ قالت ؟ إلى رجال لاتلهم تجارة ولابيع عن ذكر الله . فقال لها : صفيهم لي . فأنشدت :

قوم همومهم بالله قد علقتم . . . فما لهم هم تسمو إلى أحد  
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم . . . يا حسن مطلبهم للواحد الصمد

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٥٦٣ .

(٢) السلمي - طبقات الصوفية ص ١٢ .

- ما أن تنازعهم دنيا ولا شرف .. من الحطامع واللذات والولد  
ولا لبس لثياب فائق أنق .. ولا لروح سرور حل في بلد  
إلا مسارعة في إثر منزلة .. قد قارب الخطو فيها باعد الأمد  
منهم رهائن غدران وأودية .. وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد (١)

وكان البسطاني من صوفية عصره كما ذكرنا فيقول ذوالنون انه أرسل اليه رجلا وطلب منهم أن يقول له : إلى متى النوم والراحة ، وقد جازت القافلة ؟ فقال أبويزيد البسطاني : قل لأخي ذي النون : الرجل من ينام الليل كله ثم يصبح في المنزل قبل القافلة • فقال ذي النون : هذا كلام لا تبلغه أحوالنا (٢)

وهو هنا يتحدث إلى البسطاني بالفاظ غامضة رمزية اصطاح عليها الصوفية للتعبير عن أحوالهم ومقاماتهم ، وذلك سترًا لحالهم وضنا. بعلمهم على غير أهلها • وإن كان من الواضح أنه يعنى " بالنوم " الغفلة عن الله و " بالقافلة التي جازت " العمر الذي إنقضى أغلبه في الحياة الدنيا • فهو يطلب من صاحبه ألا يغفل عن الله حتى لا ينتهي العمر وهو في غفلته • فيرد عليه البسطاني بأن الرجل الحق من ينتبه من غفلته إذا غفل قبل رحيل القافلة • وقد تناول ذو النون في مذهبه الصوفي الحديث عن الرياضات العملية لمجاهدة النفس والتي يصطنعها الصوفية لتهديب نفوسهم فحدثنا عن العزلة - والخلوة - والذكر • والسماع والصمت وله حديث تأول فيه رياضة الحج وسنتحدث عن كل منها كما تبينناه عند شيخنا •

#### أولاً : العزلة :

في بداية الحديث عن العزلة والخلوة أود أن أوضح الفرق بينها • فالعزلة يخالط

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٣٩ •

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة •

فيها المرید الناس فلا يعتزلهم ببدنه وإنما يكون معهم ببدنه ومع الله بقلبه وروحــــــــــــــــه  
فيجالسهم ويتحدث معهم ويؤدي ما يكلف به من أعمال غير أنه في كل ذلك يكون انشغاله  
الأول بالله وليس بما حوله من الأمور الأخرى . أما الخلوة فهو يختلي بعيداً عن الناس فسي  
خلوة منفرداً مینقطع فيها للتفكر في الله والذكر المستمر وقراءة القرآن والعلوم الشرعية .

قال القشيري : " الخلوة صفة أهل الصفة والعزلة من إمارات الوصلة ، ولابد للمريد  
في إبتداء أمره من العزلة عن أبناء جنسه ثم في نهايته في الخلوة لتحقيقه بأنسه . وممن  
حق المتعبد إذا أثر العزلة ، أن يعتقد باعتزله عن الخلق سلامة الناس من شره ولا يقصد  
سلامته من شره " (١) وهذا إمعاناً من المرید في التواضع .

والمرید في بداية الطريق يصطنع العزلة ويبقى مخالطاً للناس غير أنه لا ينشغل بما  
هم منشغلون به من الاهتمامات الدنيوية من أمور الحياة المختلفة ومشكلاتها . وإنما هو  
في عزلته قد قصر إهتمامه في التقرب الى الله وذكره والتفكر فيه في سره . فهو وحده ما  
يرد على خاطره دون سواه . ثم ما يلبث المرید أن يجد نفسه في حاجة إلى الإختلاء بعيداً  
عن الخلق . فيصطنع الخلوة وفيها يقضى مدة من الزمن قد تطول أو تقصر بحسب ما يرى هو  
بعيداً عن أبناء جنسه ، يتفرغ فيها للتعبد والذكر والتأمل وتحصيل العلوم الشرعية  
والتهجد بالليل دون أن يزعجه أحد حتى يشعر بأن الله وحده قد أصبح مهيمناً على قلبه وصار  
موضع تفكيره وانشغاله . وهو في خلوته يتحقق بالانس به في وحدته ويظل بها حتى شعــــــــــــــــر  
بصفاء قلبه ونقاء نفسه وشدة قربه من ربه وأنه لو عاد إلى مخالطة الناس فإن ذلك لن يشغله  
عن الله فقد أخذ جرعة كافيته في خلوته من كأس المحبة فذاق حلاوة القرب ولذة الأنس بالله  
وسعادة الاتصال مما يقوى به على ممارسة حياته العادية بين أقرانه متحلياً بأخلاق وآداب  
الصوفية دون أن يخشى تحول قلبه عن الله والانشغال بما سواه من الأغيار أو الأمور الفانية .

(١) ابن عربي الكوكب الدرر في مناقب ذي النون المصري ل ٤٤

ويذهب سخنا المصرى إلى أن العزلة تكون صحيحة إذا قوى صاحبها على عزلة نفسه من الانشغال بما سوى الله . وهى أيضا عنده تعنى إعتزال الخصال المذمومة وأن يكون المرید خاليا عن جميع الأذكار إلى ذكر الله وأن يجلو سره لله فلا يتفكر إلا فيه ولا يأنس إلا به ولا يتقرب إلا له ويقول ذى النون : "متى تمح العزلة ؟ فقال : إذا قويت على عزل نفسك" (١)

### ثانياً : الخلوة :

يرى ذو النون أن حب الخلوة عمود الإخلاص لله تعالى إذا تعلق به السالك صار من الواصلين إلى الحضرة الالهية . وصار من الصديقين . فعلى المرید بين الحين والآخر أن يختلى بنفسه بعيداً عن مشاكل الدنيا . وأن يكون محباً للوحدة فإذا خلص من التعلق بالأغيار ومن التعلق بالدنيا فعليه أن يخلص العبادة لله وحده وأن يركز تفكيره فيه دائماً وأن يكون رضاه والتقرب إليه أكبر همه ، وطاعته . هنى أمله الذى يسعى إلى تحقيقه . فإذا خلى بنفسه لا يرى سوى الله ، وإذا لم ير سواه فلا يشغل إلا به ولا يحركه إلا حكمه وقال ذو النون فى ذلك : " لم أرى شيئاً أبعث على طلب الإخلاص من الوحدة . لانه ( أى المرید ) إذا خلا لم يرى غير الله ، فإذا لم يرى غير الله ، لم يحركه إلى حكم الله . ومن أحب الخلوة فقد تعلق بعمود الإخلاص واستمسك بركن كبير من أركان الصدق " (٢)

وعلى من يمطنع العزلة والخلوة الا يعتقد فى نفسه أنه خير من الناس الذين اعتزلهم بل عليه أن يعتقد أن عزلته سلامة الناس من شره وقال ذو النون : " ليس من إحتجب عن الخلق بالخلوة كمن إحتجب عنهم بالله " (٣) وهذا يعنى أن الخلوة ليست مطلوبة فى حسد ذاتها وإنما هى وسيلة لتصفية القلب وذكر الله . وهذا يقودنا إلى الحديث عن رياضة عمليه أخرى لتهديب الاخلاق وترقيق القلب وهى رياضة الذكر .

(١) الرسالة القشيرية ص ٥١ طبعة صبيح .

(٢) محيى الدين بن عربى : " الكوكب الدرى ل ٦١

(٣) البهرى ، زاردي - عنوارف المعارف على هامش الاحياء للغزالي ج ١ ص ٢٠٥ .

### ثالثا : الذكر :

الذكر من الرياضات العملية التي حث الله سبحانه المؤمنين عليها في مثل قوله

تعالى : " يا أيها الذين آمنوا أذكروا الله ذكرا كثيرا " (س الإحزاب آية ٤١) •

ورياضة الذكر من أهم الرياضات التي يصطنعها الصافية للوصول الى الوجد والفناء

وقد يكون الذكر في الجماعة وقد يكون منفردا •

وللذكر عبارات خاصة مثل " الله " أو " لا إله إلا الله " أو سبحان الله " أو " هو الله "

أو غيرها من عبارات الذكر وعلى الذاكر أن يكون متطهرا ويجلس مقتبلا القبلة • ويتردد

لقظا من الفاظ الذكر السابقة ويظل يذكر بلسانه ويحصر تفكيره في الله ويطرد من خاطره كل

ماسواه من الخواطر التي تشغله عن الذكر ثم مع استمرار الذكر يسكت اللسان ويبقى ذكر

القلب • ولا يزال الذاكر في شكره في الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويبقى بالله •

وفي تلك اللحظات يفيض الله على قلبه المعارف النورانية الوهية •

يقول السهروردي البغدادي : " الذكر على أربعة أقسام : ذكر اللسان - وذكر القلب

وذكر السر - وذكر الروح • فإذا صح ذكر الروح سكت السر والقلب واللسان عن الذكر •

وكذلك ذكر المشاهدة • وإذا صح ذكر السر سكت القلب واللسان عن الذكر ، وذلك ذكر

الهيبة • وإذا صح ذكر القلب ، فتر اللسان عن الذكر ، وذلك ذكر الآلاء والنعماء • وإذا

غفل القلب عن الذكر أقبل اللسان على الذكر ، وذلك ذكر العادة " (١)

وحقيقة الذكر عند شيخنا هي غيبة الذاكر عن الذكر • فأعلى درجات الذكر هي

التي يفنى فيها الذاكر عن ذكره فيسكت اللسان ويبقى ذكر الروح ويفنى الذاكر عما حوله

وعن نفسه ويبقى بالله •

(١) ابن عربي " الكوكب الدرر في ما قبل ذى النون المصري ل ٤٦ •

ويقول ذو النون : " الذكر هو غيبة الذاكر عن الذكر " <sup>(١)</sup> فأفة الذكر أن يشعر الذاكر أنه يذكر . فمن ذكر الله ذكرا على الحقيقة نسي في جانب ذكره كل شيء ، ولذا يقول السهروردي : " ولكل واحد من أنواع الأذكار عندهم ( أي الصوفية ) آفة . فأفة ذكر الروح اطلاق السر عليه وآفة ذكر السر اطلاق النفس عليه ، وآفة ذكر النفس رؤية ذلك وتعظيمه ، أو طلب ثوابه أو ظن أنه يصل شيء من المقامات . وأقل الناس قيمة عندهم من يريد إظهاره . وسر هذا الاصل الذي بنوا عليه . أن ذكر الروح ، ذكر الذات . و ذكر السر ، ذكر الصفات . و ذكر القلب من الآلاء والنعماء و ذكر أثر المقفات . و ذكر النفس متعرض للمحلات . <sup>(١)</sup>

ولا يعنى الذكر عند صوفينا أن الذاكر كان غافلا عن الله ثم تذكره . وإنما لسان الصوفى قد اعتاد على ذكر الله مع حضوره سبحانه وتعالى دائما ففى قلبه وقد أنشد ذو النون :

لا لأنى أنساك أكثر ذكرا .. ولكن بذاك يجرى لسانى <sup>(٢)</sup>

والذكر عند ذى النون هو سيف المريدين به يقاتلون أعدائهم ، وبه يدفعون الآفات . وهو يغضى بالذاكرين الى الفناء والاتصال الروحى بالله سبحانه ويثمر المعرفة الذوقية .

والمريد الصادق عند شخينا إذا ذكر الله ذكرا كثيرا وصدق سعيه تجلى الله فى قلبه وحلى ذكره فى لسان الذاكرين وشغلهم به تعالى عن كل شيء وأحبوه أكثر من الاهل والمال ويقول ذو النون : " ان المرید اذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى فى صدره وحلى ذكره فى أفواه المريدين وشغلهم به شغل القلب على جميع الاشغال وحبهم له يحول بين الاهل والمال " <sup>(٣)</sup>

#### زايحيا : النكياح :

السمع عند ذوى النون وغيره من الصوفية رياضة من الرياضات العملية التى ترقق

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢) ابن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٠٩

(٣) المرجع السابق نفس اللوحة .

القلب وتبعث على الوجد وقد تؤدي بالسامع إلى الغناء • وهو يستند على أيه مثل قولسه  
تعالى " فبشر عبادى الذين يسمعون القول فيتبعون أحسنه " (س الزمر آية ١٨) •

وقد عرف ذو النون السماع بقوله : " السماع وارد حق يزعج القلب ( أى يحركه )  
إلى الحق • فمن أصغى إليه بحث تحقق • ومن أصغى إليه بنفس تزندق " (١)

والسماع هو سماع القرآن الكريم وهو عنده وعند الصوفية جميعا أعلى أنواع السماع  
فهو كلام الله رب العالمين الذى لا يدانيه كلام • وسماع الأشعار والإشاد الدينى وغيره من  
الأقوال التى تحرك قلب السامع وتؤثر فيه • فيسقط ما يسمعه من المعانى على ما فى نفسه  
فإن كان فى نفسه هوى وشهوة ( دنياوية ) آثارها السماع وإن كان قلبه عامرا بحب الله آثار  
السماع فيه هذا الحب • ولذا قال ذو النون : " السماع يزعج القلب وأن من أصغى إليه بحق  
تحقق وأن من أصغى إليه بظوظ النفس وحب ما سوى الله تزندق " (٢)

وقد حكى أحد الصوفية المعاصرين لذى النون قال : " لما دخل ذم النون المصرى  
بغداد أجمع عليه الصوفية ومعهم قوال • فاستاذنوه أن يقول بين يديه شيئا فاذن له • فانشد  
القوال :

صغير هواك عذبنى • • • فكيف به اذا إحتنكا  
وانت جمعت فى قلبى • • • هونى فكأكلن شتى كركا •

فتواجد ذو النون وسقط فانشج رأسه وقطر منه دم غير أنه لا يسقط على الأرض • فقام  
شاب يتواجد فقال له ذو النون إتق الذى يراك حين تقوم • فقعد الشاب • وكان جلوسه لموضع  
علمه أنه غير كامل الحال ، غير صالح للقيام متواجدا • فلا يصح ان يقوم، أحدهم من غير تدبر  
ولا علم فى قيامه • وذلك إذا سمع إيقاعا موزونا فيتحرك بالطبع الموزون للصوت الموزون  
وينسبل حجاب نفسه المنميط بانسباط الطبع على وجه القلب ، ويستغزه النشاط المنبعث

(١) محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى ل ١٠٩

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة •

(١) من الطبع ، فيقوم بقرص موزونا ممزوجا بتمنع وهو محرم عند أهل الحق

والصوفي الصادق عندما يسمع آيات الذكر الحكيم أو إنشاد القوالين فإنه لصدق  
مشاعره ورقة قلبه ونقاء سريرته ولشدة قربه من الله ينمت إليها في تفكير وتدبير • فتثير في  
قلبه مشاعر الحب والشوق الكامن لله فيستغرقه الوجد فيفنى عما حوله ويفنى عما يسمع  
ويبقى بالله فتحدث له حالة من الغناء والاتصال الروحي • وقد يأتي السامع لشدة انفعاله  
وقوة وجدته بحركة أو يطلق صوتا • وإذا كان صادق الحال فإن كل ما يصدر عنه يكون دون تعمد  
منه ولا إرادته • أما إذا كان مدعيا أو منافقا فإنه يتكلف الحركات •

وذكر الله بالقلب والتفكير فيه عند صوفينا هو مفتاح العبادة فإذا تأمل المؤمن في  
بديع صنع الله وعظمة خلقه للكون وتنسيقه له وتفكر في نعم الله على مخلوقاته • خر له  
ساجدا إجلالا وتكبيرا وتعظيما وشكرا • ويقول ذو النون : " مفتاح العبادة الفكرة " (٢)  
والسمع يبعث على التفكير في الله • ويقول : " من يتبع الحق في هذا السماع يحصل له  
الكشف على حين أن من يقع له الحجاب يعمد الى التأويل " (٣) •

خامسا : الصمت :

يعتبر ذو النون الصمت من الرياضات العملية التي يصطنعها سالك الطريق الصوفي  
لتهذيب نفسه ويعطيه فرسه كامله للتأمل والتفكير في الله كما أنه يكف لسانه عما سوى  
الله ويقول ذو النون في أهمية الصمت : " إذا سمعنا شابا يتكلم في المجلس بألسنا من  
خبره " (٤)

- (١) محيي الدين بن عربي الكوكب الدرر في مناقب ذي النون المصري ل ١٠٩ •
- (٢) المرجع السابق نفس اللوحة •
- (٣) المرجع السابق نفس اللوحة •
- (٤) المرجع السابق ١١٠ •

ويصف حال الصوفي الملتزم بالصمت بقوله : " إن لله عبادا ..... تلبدوا من غير وعى ولا بكم وأنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله " (١) .  
قربان الصمت لا تقتصر على المرئيين المبتدئين فقط بل بصطنعها الصوفية العارفين الواضلين الى الحضرة الالهية ايضا فيصمتوا وهم البلغاء الفصحاء حتى يتلقوا عن الحق سبحانه . كما يشير ذو النون الى رياضات عملية أخرى كالسهر والصوم والجوع وغيرها من الرياضات التي يمطنعها الصوفية لتضعف بشريةهم وتقوى روحانيتهم ويكونوا اهلا للاتصال الروحي بالله .

### سادسا : الحج :

تناول ذو النون رياضة الحج بالتحليل الطريق لمناسكه فكشف فيهما يقول المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمى عن معانى تلك الرياضة العملية وأولها تأويلا آبان عن آثارها الروحية فى حياة الذين يؤدون المناسك سواء فى علاقاتهم بربهم أو بأنفسهم أو بأشبابهم (٢)  
فقد أول ذو النون الوقوف بالجبل بالكعبة بان ذلك إنما كان لان الكعبة بيت الله والجبل باب الله . وان الله ليوقف القاصدين اليه والوافدين عليه بالباب يتضرعون . ويتأول ويعلل الوقوف بالمشعر الحرام . وكيف صار بالحرام . وذلك بأن الله لما أذن للوافدين عليه بالدخول اليه أوقفهم بالحجاب الثانى وهو المزدلفة . ولما طال تضرعهم أمرهم بتقديم قربانهم . وكان هذا القربان تطهيرا لهم من ذنوبهم التى كانت لهم حجابا من دون الله . وأذن الله لهم بالزيارة على طهاره . وأما أن الصوم مكروه أيام التشريق فذلك ما يأولسه ذو النون ويعلله بأنه راجع الى أن القوم انما زاروا الله وانهم فى ضيافته ، ولا ينبغي للضيف أن يصوم عند من اضافه . ويعلل ذو النون التعلق باستار الكعبة فكشف عن المعنى الذى ينطوى عليه هذا التعلق فيرى أن مثل الرجل وقد تعلق باستار الكعبة كمثل الرجل وقد كان

(١) محبى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١١٠ ،

(٢) دائرة المعارف الاسلامية . تعليق على مادة ذى النون ج ٤ ص ٤٢٦ .

(١) بينه وبين أخيه جناية فتعلق بثوبه واستجدى له وتضرع إليه ليهب له جرمه وجنايته

### المقامات والاحوال عند ذى النون المصرى :

اتضح لنا مما سبق ان الرياضات العملية تلعب دورا هاما فى اثاره الوجد وترقيق القلب وتحمل بالسالكين طريق الصوفية الى حال الفناء كذلك إن الرياضات الروحية تعدل من سلوك المرید وتهذيبه وتحل به الى اعلى مستويات الكمال الاخلاقى . وتمضى نفسه من الاخلاق الذميمة ، كالحقد ، والحسد ، والغيرة ، والكراهية ، والجشع . وعدم الرضا ، وقلة الحلم ، وانكار نعم الله وغيرها من الصفات التى يجاهد المرید نفسه للتخلص منها والتحليق بافهامها . ولذا قيل : التصوف تخليه و تحليه . أى تخليه القلب والنفس من الاخلاق الذميمة وأدران الشهوة والهوى . وتحليته بحب الله والاخلاق الحميدة .

وقد كان لصوفينا المصرى الفضل فى وضع اسس التصوف النظرى وكان من اوائل الصوفية الذين تكلموا فى مصر فى ترتيب الاحوال ومقامات أهل الولاية كما سبق أن اشرنا . وقبل التعرف على تمنيفه للمقامات يجدر بنا التفرقة بين المقام والحال كما جاء فى الرسالة القشيرية : فالمقام هو موضع إقامة السالك فهو يتصف به على الدوام ويصل اليه بالاجتهاد والارادة ومقاومة هوى النفس ومحاولته المستمرة للوصول بها الى درجة الكمال عن طريق الرياضات العملية كالصوم والذكر والملاة والسماع والعزلة والخلوة والسهرة والصمت وغيرهم وكلما تحقق السالك بأحد المقامات سعى الى التحقق بالمقام الذى يليه . ويختلف عدد المقامات وترتيبها من صوفى الى آخر ومن أمثلة المقامات . التوبة ، الحقد ، الرضا ، الذهب والمحاسبة وغيرها . أما الحال عند الصوفية فهو معنى يرد على قلب السالك من غير تعمد ولا إجتلاب ولا إكتساب من طرب أو حزن . أو قبض أو بسط أو شوق أو هيبة أو فناء . فالاحوال فواهب والمقامات مكاسب . وصاحب المقام ممكن فى مقامه وصاحب الحال مترق عن حاله

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٢ طبعة صبيح

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة

من ذلك يتضح أن الفرق بين الحال والمقام أن المقام يتحقق به المالك بكثرة تعبدته وإرادته أما الحال فهو موهبة من الله تلد على قلب المالم من غير التعمد منه ولا إجتهد . كما أن المقامات دائمه بينما الاحوال زائلة .

وهناك نص لذي النون نستطيع أن نستشف منه ترتيب المقامات يقول فيه : " إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزننا فجنوا بنير جنون . وتبلدوا من غير وعى ولا بكم وإنهم هم البلغاء الفصحاء العارفون بالله ورسوله . ثم شربوا بكأس المقاء وورثوا الحبر على طول البلاء ثم تولت قلوبهم فى الملكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجيروت وأستظلوا تحت رواق الندم وقرأوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا الى علو الزهد بسلم الورع . فاستعذبوا مرارة التبرك للنديا وأستلنوا خشونة المضجع حتى ظفروا بحبل النجاه وعروة العلامة وسرحت أرواحهم فى العلا حتى أناخوا فى رياض النعيم وخاضوا فى بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسر الهوى حتى نزلوا ببناء العلم واستقوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الفطنة وأقلعوا بريح النجاة فى بحر العلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة ومعدن العزة والكرامة . " (١)

ويمكن أن نتبين من هذا النص المقامات التالية :

مقام التوبة - مقام الصدق - مقام الاخلاص - مقام الصبر - مقام التفكير والتأمل - مقام اليقين - مقام الخوف الرجاء - مقام العبودية - مقام الحب والعشق - مقام الزهد - مقام التواضع - مقام الرضا - مقام التوكل - مقام المعرفة . ومن الاحوال . حال الانس - وحال الفناء والامتثال .

١ - مقام التوبة : - يعتبر صؤفينا التوبة هى أول مقامات الطريق الصوفى ويحدثنا عن نوعين

من التوبة :

(١) محى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون ل ١٠٠

- توبة العوام • وتكون من الذنوب والمعاصي وهي للمريد في بداية الطريق .
  - توبة الخواص وتكون من الغفلة عن الله والانشغال عنه بما سواه ويقول ذو النون : " توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة " (١)
- والتوبة من الغفلة قد حث الله عليها في مثل قوله تعالى : " واستغفروا ربكم ثم توبوا اليه إن ربي رحيم ودود " ( س التوبة آية ٩٠ ) والتوبة من الغفلة حث الله عليها عباده المخلصين في مثل قوله تعالى : " وتوبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون " ( س النور آية ٣١ ) وحتى تصح التوبة لا بد لصاحبها من ثلاثة أشياء فيما يرى ذو النون : الندم على ما عمل ، ترك تلك المخالفات التي تغضب الله ، والعزم على ألا يعود على مثل ما ارتكب من المعاصي (٢) ويقول صوفينا في ثمرة التوبة : ( إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا ، نصب رواق القلوب ، وسقوها بماء التوبة ، فأثمرت ندما وحزنا " (٣)

فالحريدون الذين وقفوا على خطاياهم وأنتبهوا الى ما عملوه من ذنوب وما كانوا فيه من غفلة عن الله فعدموا على التوبة الصادقة وترك كل ما يبعدهم عن الله وشعروا بالندم والحزن فإنهم يعزمون على ألا يعودوا مرة ثانية الى مخالفة الله أو الغفلة عنه • وهذا يشبه ماقلاله الغزالي عن التوبة في كتابه " احياء علوم الدين " حيث قال : " أعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، حال ، فعل • فالعلم الاول والحال الثاني والفعل الثالث ••••• أما العلم فهو معرفة عظم الذنوب وكونها حجابا بين العبد وربّه فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب كلما شعر بفوات محبوبه تألم فإن كان فواته بفعله تأسف على

(١) محي الدين بن عربي : الكوكب الدرّي في مناطق ذي التون المصري ل ١٠١

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة

(٣) المرجع السابق ل ١٠٠ ظ

الفعل المنفوت فيسمى ذلك ندما فإذا غلب هذا الالم على قلب واستولى إن إنبعث في القلب  
حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا الى فعل له تعلق بالحال ، وبالماضى ، والاستقبال . أما تعلقه  
بالحال فبالترك للذنوب التي كانت ملابسة . وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنوب  
المفوتة للمحبوب الى آخر العمر . وأما بالماضى فبتلافى ما فات بالجبر والقضاء .<sup>(١)</sup>

وعلى السالك الذى تحقق بمقام التوبة أن يتحقق بعد ذلك بمقام الصدق

٢- مقام الصدق : - يعتبر الصدق هو ثانى المقامات التى يجب أن يتحقق بها المرید . وهو يستند  
على مثل قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ( التوبة آية ١١٩ )  
وهو ضامن لصحة التوبة . والصدق هو رأس مال المرید وفيه صلاح أمره ، وهو سلاح المؤمن  
الذى عليه أن يتسلح به حتى تكتب له النجاة دائما ، وهو سيف الله فى أرضه الذى يقطع بين  
الحق والباطل والشك واليقين . ويقول ذون النون فى الصدق : " الصدق سيف الله فى أرضه ما  
وضع على شئ الا قطعه " <sup>(٢)</sup>

والمرید الصادق عند شيخنا هو من يكون صادقا مع ربه فلا يدع من المقامات والاحوال  
ماليس له ولا يقول بلسانه ما ليس بقلبه أو يدعى المعرفة بالله أو الزهد . ويكون صادقا مع  
نفسه . وصادقا مع غيره . ويقول ذون النون : " وإياك أن تكون بالمعرفة مدعيا أو تكسون  
بالزهد محترفا . أو تكون بالعبارة متعلقا " <sup>(٣)</sup>

والصدق عند ذى النون هو الحقيقة الموصلة للحق فالله هو الحق وقوله الحق  
ولا يتيسر للسالك الوصول اليه إلا بالحق والصدق وإلا فهو محجوب عن مشاهدته . ولا يجوز

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢ .

(٢) السلمى - الطبقات ص ١٠ - وأنظر أيضا : الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٥٢ .

(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى - ل ١١١ .

للمدعين الكذب على الله لأنه سبحانه شاهدا عليهم ، وأعلم بحالهم • وكاشفا أسرارهم  
ويقول شيخنا : " كل مدع محجوب بدعواه عن شهود الحق لأن الحق شاهدا لأهل الحق .....  
لأن الحق هو الحق • وقوله الحق ولا يحتاج أن يدعى إذا كان الحق شاهدا له • وأما إذا كان  
غائبا فحينئذ يدعى ، وإنما تقع الدعوى للمحجوبين " (١) •

وإذا تحقق المرید بمقام المدق عليه أن يكون مخلصا في علاقته بالله ويخلص قسى  
مدقه فيعمل على التحقق بمقام الاخلاص •

٢ - مقام الإخلاص يربط شيخنا بين مقام الصدق ومقام الاخلاص فيذهب إلى أن الصدق لا يتم  
إلا بالإخلاص وأن الاخلاص لا يتم الا بالمدق فعلى المرید الصادق في توبته أن يكون مخلصا لله  
ويصبر على اخلاصة ويداوم على التحقق بالصدق • ويقول ذو النون في ذلك : " الاخلاص لا يتم  
الا بالصدق فيه ، والصبر عليه ، والصدق لا يتم الا بالإخلاص فيه والمداومة عليه " (٢)

ومقام الاخلاص يقوم على أية مثل قوله تعالى : " ألا الله الدين الخالص " ( س الزمر  
آية ٢ ) وقوله تعالى : " وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين " ( س البينة آية ٥ )  
وعلاوة تحقق المرید بمقام الاخلاص عند شيخنا ثلاثة هي : استواء المدح والذم من  
العامّة - نسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة •

فالمرید الذي تحقق بمقام الاخلاص لا يغضبه ذم الناس له ولا يفرحه مدحهم فالناس  
لا يحكمون الا بالظاهر بينما الحق سبحانه يحكم بما في الباطن • وهو وحده المطلع على ما في  
قلبه وسريته طالما تحقق بالإخلاص وصدق في اخلاصه لله • كما أن المتحقق بمقام الاخلاص  
إذا فعل خيرا او سلك سلوكا نبيلًا فإنه لا ينظر الى فعله على أنه عمل عظيم وإنما هو يعمل

(١) ... الزنالة القشيرية - تحقيق د • عبد الحليم محمود ، ومحمود الشريك ج ٢ ص ٤٥٢

(٢) محيي الدين بن عربي - الكوكب الدرّي في مناقب ذو النون المصري ل ١١١

الخير ولا يرى ذلك في أعماله حتى لا يدخله العجب بنفسه وكذلك فإن المتحقق بمقام الاخلاص لا يعمل العبادات ابتغاء الاجر والثواب فيكون كما قالت رابعة العدوية : " كالأجير السوء " وإنما هو ينسى اقتضاء ثواب العمل في الآخرة فيعمل الخير لذاته . . . . .

ولاربيب أن من أراد أن يتقرب الى الله ويحظى برفاه وجهه يجب ان يتحلى بالمصدق والاخلاص والا فهو مدع ومنافق لاتصح توبته وهو بذلك يكون محجوب عن الله . ويتفق قسول ذى النون مع الغزالي في أن الاخلاص الصادق هو عدم رؤية المرید للاخلاص فإنه اذا شاهد إخلاصه فقد احتاج اخلاصه الى اخلاص وأن السالك يجب ألا يرى فعله أو يلتفت اليه ينفق ايضا مع ما ذهب اليه الغزالي من ان الاخلاص هو تجريد قصد التقرب الى الله تعالى من الشوائب (١) وعلى السالك بعد ذلك أن يتحقق بمقام الصبر .

٤ - مقام الصبر : يعتبر صوفينا مقام الصبر من المقامات التي يجب أن يتحقق بها السالك للطريق الصوفى منذ البداية وهو قائم على مثل قوله تعالى : " واصبر وما صبرك الا بالله " (س النحل ايه ١٢٢) . وحقيقة الصبر عند ذى النون في قدرة السالك على البعد عن المخالفات فالمرید الذي يجاهد نفسه ليزكي الخير فيها ويورثها جميل الصفات عليه بالبعد عن المعاصي والمخالفات ويصبر على ذلك . كما أن للصبر عنده معنى آخر وهو السكون عندما تحل بالسالك البلية أو مكروه . كما ان الصبر يظهر في التحلى بمظهر المتنعم بنعم الله الميسور الحال في وقت عوزه وشده فقره ، فالسالك المتحقق بمقام الصبر يبدو على مظهره الرضا والسعادة والغنى مع قلة موارده وخيق رزقه ويقول ذو النون : " الصبر هو التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجريح البلية ، واظهار الغنى مع خلول الفقر بساحات المعيشة " (٢) ومن أعلام الحلم عند شيخنا ثلاثة : قلة الغضب عند مخالفة

(١) - محيي الدين بن عربي - الكوكب الدرى في مناقب ذو النون المصرى لـ ١١٢ .

(٢) الطوسى : التمع ص ٢٥ .

الرأى ، والاحتمال عند الورى إخبانا للرب ونسيان اساءة المسىء عفوا عنه واتساعا عليه " (١)  
ثم على السالك بعد ذلك ان يديم التفكير فى الله

٥ - مقام التفكير والتأمل : يرى ذو النون ان التفكير فى الله والتأمل فى ملكوته وعظيم قدرته فى خلق السماوات والارض هو مفتاح العبادة كما أن السالك اذا تفكر فى نعم الله خر متبججاً له اجلالا واكبارا ويقول ذو النون : " مفتاح العبادة الفكرة " (٢) . ولاشك أن المتفكر فى الله الذى لايشغل فكره بسواه ولايرجو الارضه كلما زاد تفكره كلما شعر بنقصه امام كمال الله وبضعفه امام قوته ، وبجهله امام علمه . وبخسته امام عظمته سبحانه فيخشى جبروته .

وقد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبير فى مثل قوله تعالى : " الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار " (س آل عمران آيه ١٩١ ) واذا تعمق السالك فى التفكير فى الله تحقق بحال اليقين .

٦ - مقام اليقين : يتحقق السالك بمقام اليقين عملا بقوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " (س الواقعة آية ٩٥) . واليقين هو العلم الذى لايدخله صاحبه ريب على مطلق العرف ، ولا يطلق فى وصف الحق سبحانه لعدم التوقف . وعلم اليقين على موجب اصطلاح الصوفيه ما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين ما كان بحكم البيان ، وحق اليقين ما كان بنعت العيان . فعلم اليقين لارباب القلوب وعين اليقين لاصحاب العلوم ، وحق اليقين لاصحاب المعارف (٣) .

واليقين عند صوفينا يكون نتجية التفكير والتأمل فى الله وهو نور اذا وصل الى القلب ازال عنه كل ريب ويمتلىء القلب به شكرا لله وخوفا من عباده ورجاء فى ثوابه وهو عند صوفينا باعث على الزهد فى الدنيا والبعد عما سوى الله . والزهد بدوره يؤدى الى

(١) ابو نعيم الاصفهاني حلية الاولياء ج ٩ ص ٢٨٢ .

(٢) السلمى - طبقات الصوفية ص ١١ وانظر الطوسى اللمع ص ٧٦ .

(٣) محيى الدين برن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٢ .

الحكمة فى القول والفعل والحكمة تورث النظر فى عواقب الامور • وتؤدى الى بعد النظر • ويقول فى ذلك : " اليقين داع الى قصر الامل ، وقصر الامل يدعو الى الزهد ، والزهد يورث الحكمة والحكمة تورث بعد النظر فى العواقب • (١) وفى رأى شيخنا ان اليقين اذا صح فى القلب ، صح فى القلب الخوف من الله • فمن لا يقين عنده لاخوف عنده • ويقول : " إذا صح اليقين فى القلب صح الخوف فيه " (٢) اى إذا لم يكن الانسان مؤمناً ومتيقناً من وجود الله تعالى فلن يخشاه أو يخافه •

وما قاله ذو النون يشبه ماقاله الغزالي من : " أن الخوف ثمرة العلم اليقين بالله تعالى " (٣) ويذهب ذو النون إلى أن من علامات اليقين ثلاثة : قلة مخالطته ( أى المريء ) للناس فى العشرة • وترك المدح لهم فى العطية والتنزه عن ذمهم عند المدح • (٤)

وعنده ايضاً أن اعلام يقين اليقين ثلاثة : النظر الى الله تعالى فى كل شئ ، والرجوع اليه فى كل أمر • والاستماع به فى كل حال • (٥) واذا ايقن السالك من وجود الله فانه يخشاه ويرجو عفوہ • فعليه بعد ذلك أن يتحقق بمقام الخوف والرجاء •

٧ - مقام الخوف والرجاء : ومقام الخوف يقوم على مثل قوله تعالى : " ويحذركم الله نفسه " ( س آل عمران اية ٢٨ ) ويذهب ذو النون الى ان الخوف رقيب العمل ومن خشى ربه راقبه فى كل اعماله واقواله مخافة أن يقع فى معصية تنضب ربه • ولذلك فمن يتحقق بمقام الخوف من الله يكون حريصاً كل الحرص على مرضاة الله فى جميع ما يصدر عنه • رجاء رحمة فى المحن وغفرانه للذنوب والامل فى عفوہ ورضاه ويقول شيخنا : " الخوف رقيب العمل

(١) الرسالة القشيرية ص ٤٤ طبعة صبيح •

(٢) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٢

(٣) الغزالي الهادي في علوم الحديث ج ٢ ص ١٥٧ •

(٤) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٢ •

(٥) المرجع السابق نفس اللوحة •

والرجاء شفيح المحن" (١) فالرجاء " هو ازتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده " كما يقول الغزالي الذي يرى ان العمل على الرجاء اعلى منه على الخوف لأن اقرب العباد الى الله تعالى أحبهم له . والحب يغلب الرجاء " (٢)

والى مثل هذا ذهب صوفينا من قبل حينما قال : " لو أن ذرة من الاشتياق . أثقل على الجوارح من قنطار من الخوف . لأن الشوق يخرج من الابدان خفى الطاعات " (٣) تصوفينا يرى أن ذرة من حب الله والشوق اليه تعمل عملها في جوارح المحب المشتاق فيراقب الله في كل حال لأن الشوق يتخرج من الابدان ما خفى من الطاعات مما لا يقدر الخوف على إخراجه .

ويذهب شيخنا الى أن العابدين الخائفين يدركون حق الادراك أن لله حقوق أثقل من أن يقوم بها العبد . وله سبحانه نعم لا تحصى ولا تعد وان عليهم ان يتوبوا الى الله بكرة واميلا ويقول ذو النون : " لله عبادا قطعهم الخوف أن يعرفوا أن حقوق الله أثقل من أن يقوم بها العابد . وأن نعم الله أكثر من ان يحميها العابد ولكن أصبحوا توابين وامسوا توابين " (٤)

وقد سئل صوفينا . متى يتيسر على العبد سبيل الخوف ؟ فقال : اذا انزل نفسه منزله السقيم يحتمى من كل شيء ، مخافة السقم (٥) وهذا يعنى أن العبد يتحقق بالخوف اذا ايقن ان مكروها ينتظره أو خشى نفسه ان يكون دوماً في منزلة السقيم فيحتمى من غضب الله في تجنب المعاصى مخافة طول السقم . وهذا يشبه ماقاله الغزالي من أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه اما أن يكون مكروها في ذاته كالنار ، واما أن يكون لانه يفضى الى مكروه كما تكرر المعاصى لأدائها الى مكروه في الآخرة (٦)

(١) طبقات السلمى ص ١١

(٢) الغزالي : احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٤١ .

(٣) محيى الدين ابن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٤ .

(٤) المرجع السابق نفس اللوحة .

(٥) المرجع السابق نفس اللوحة .

(٦) احياء علوم الدين ج ٤ ص ١٥٥ .

وللخوف عند شخنا علامات ثلاثة هي كما يقول : " الورع عن الشبهات بملاحظة الوعيد وحفظ اللسان مراقبة للتعظيم ودواء الكمد اشفاقا من غضب الحليم" (١)

وكان الحسن البصرى ( ٢١ هـ - ١١٠ هـ ) اكثر الزهاد تحققا بمقام الخوف . وكان دائما يقول : " من خوفك حتى تلقى الامن خير ممن أمنك حتى تلقى الخوف " (٢)

وقال ذو النون فى الرجاء : " لئن مددت يدي اليك داعيا لطالما كفيتنى ساهيا اقطع منك رجائى بما عملت يداى ؟ حسبى من سؤالى علمك بحالى . " (٣) وهنا يناجى ذو النون ربه بأنه يطمع فى كرمه ويرجو عفوه ومغفرته فإذا مد اليه يده داعيا راجيا وهو سبحانه الكريم الذى طالما تكرم عليه بنعمه وهو غافل عنه فهو لا يقطع الرجاء من الله بما عمل من ذنوب لانه أعلم بحاله . واذا تحقق العبد بالخوف من الله فعليه ان يصح عبوديته لله ويلتزم بمقام العبودية الحقه .

٨ - مقام العبودية : يقوم مقام العبودية على آية مثل قوله تعالى " واعبد ربك حتى يأتيك اليقين " ( س الحجر آية ٩٩ ) والعبودية هي جوهر الدين وهي دستور العلاقة بين العبد وربّه وهي فى رأى الصوفية أتم من العبادت . فأولا عبادة ، ثم عبودية ، ثم عبودة . فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص ، والعبودة لخواص الخواص . والعبادة لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين ، والعبودة لمن له حق اليقين . والعبادة لأصحاب المجاهدات والعبودية لأرباب المكابذات . والعبودة صفة أهل المشاهدات ؟ فمن يدخر عنه تعالى نفسه فهو صاحب عبادته ومن لم يرض عليه بقلبه فهو صاحب عبوديه . ومن لم يبخل عليه بروحه فهو صاحب عبوده (٤)

- (١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٤ .
- (٢) الصهر واردى - عوارف للمعارف ص ٩٨ .
- (٣) محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١١٥ .
- (٤) ابونعيم الاصبهاني - حلية الاولياء ج ٢ ص ١٢١ .

ولا ريب أن فى عبودية الله منتهى العزة والكرامة ومنتهى الحرية ولذلك قال الامام القشيري " الحرية الا يكون العبد تحت رق المخلوقات ولايجرى عليه سلطان المكونات . (١)

كما أن ذروة الحرية الا يخضع الانسان لشهوات نفسه ويسير عبدا لها ، ولذلك قال ابو على الدقاق " من دخل الدينا وهو عنها حر ، يرتحل الى الآخرة وهو عنها حر " (٢)

فحقيقة الحرية فى كمال العبودية فإن كان العبد صادقا فى عبوديته لله خلص من رق الاغيار ومار من الاحرار ولذلك قال الحسن بن مثنور الموفى : " من أراد الحرية فليصل العبودية " (٣)

وحقيقة العبودية عند ذى النون أن يشعر السالك بأنه عبدا لله سيده ومولاه فى كل حال وأن فيعرف أنه تعالى رب نعمته ويقول : " العبودية أن تكون أنت عبده فى كل حال كما أنه ربك فى كل حال " . (٤)

والسالك المتحقق بالعبودية يستحى من الله ولذلك فيجيب عليه التحق بمقام الحياء .

٩ - مقام الحياء : يذهب ذو النون الى أن العبيد الذى يخشى ربه لابد ان يستحى منه قال تعالى : " الم يعلم بأن الله يرى " (س العلق اية ١٤ ) وهو يربط بين مقام الخوف من الله ومقام الحياء منه تعالى . فيجعل الخوف فى منزلة أقل من منزلة الحياء . فالمرسيد الذى يترك المعاصى ويتقرب الى الله بالطاعات والعبادات لتحققه بمقام لخوف . ما يلبث أن يترك ذنوبه حياء من كرم الله . بعد أن تركها خوفا من عقوبته . ويقول فى ذلك : " لله عباداً تركوا الذنوب استحياء من كرمه . بعد ان تركوها خوفا من عقوبته . ولو قال تعالى :  
اعمل ما شئت فلست اخذك بذنب . كان ينبئ أن يزيدك استحياء منه ، وتركا لمعصيته ،

(١) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٢٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٦٠ .

(٣) المرجع السابق ٤٦٢ .

(٤) ميجى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١١٥

ان كنت حرا كريما عبدا شكورا • فكيف وقد حذرك !! " (١)

وحقيقة الحياء عند ذى النون شعور قلب السالك بهيبة الله عز وجل مما إقترفه  
من معاصى سابقة ويقول : " الحياء وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك الى ربك " (٢)  
وقال أيضا : " الحب يُنطق والحياء يُسكت ، والخوف يُقلق " (٣) •

وذو النون يفرق بين الاستجابات الانفعالية لكل من الحب والحياء والخوف من الله  
فيرى أن الحب لله الذى تمكن من قلب صاحبه لابد أن ينطق تعبيرا عن هذا الحب العظيم •  
أم الذى يسيطر عليه الحياء من الله ، فإن الحياء يسكته ويجعله غير قادر على النطق ،  
أما الذى تملك قلبه الخوف من الله فإن القلق يسيطر عليه • وعند شيخنا اعلام الحياء  
ثلاثة هي : " وجدان الانس بفقدان الوحشة ، والامتلاء من الخلوة بإدمان التفكير ، واستشعار  
الهيبة بخالص المراقبة " (٤) والسالك الذى صح عبوديته وصار يستحى من ربه عليه  
ان يزهد فى الدنيا ويقبل على الآخرة •

١٠ - مقام الزهد : يعتبر صوفينا ان الزهد فى الدنيا من اهم الصفات التى يجنب  
ان يتحقق بها السالك للطريق الصوفى ففى رأيه أن الانسان الذى يتجه بكلية الى الله  
متقربا اليه بالعبادات والطاعات ، لا يتعلق قلبه بزينة الحياة الدنيا وما بها من اغواءات  
وملذات شاته ، اذا قضى الانسان عمره فى تحصيلها فانه يشقى بها ويسلمه ذلك الى  
الانغماس فيها فيصير اسيرا لها وتمرفه عن التفكير فى الله والتقرب اليه • وتصبح الدنيا  
هى جنته بما فيها من النعيم والمتع الزائفة الزائلة • ويرى فى التمتع بها لذته الحقيقية  
وسعادته الكاملة فيسرف فى الاقبال عليها •

(١) المسلمى - الطبقات ص ١١ وانظر ايضا محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١١٦

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة والرسالة القشيرية ج ٢ ص ٤٥٥ •

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة •

(٤) الاصبهانى - حلية الاولياء ج ٩ ص ٢٨٢ •

أما المؤمن فإنه يعتبر الدنيا سجن كبير وهي فرصة يتزود فيها بالأعمال الصالحة والطاعات والعبادات حتى يعد نفسه للتعميم المقيم في الجنة الحقيقية • ويقول ذو النون : " الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر " <sup>(١)</sup> ويقول من أعلام الزهد ثلاثة " قصر الأمل - وحب الفقر ، والاستغناء مع الصبر " <sup>(٢)</sup>

ويذهب شيخنا الى أن الزهد في الدنيا يورث الحكمة والنظر في عواقب الامور فهو يقول : " الزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر في عواقب الأمور " <sup>(٣)</sup> .

وحقيقة الزهد عند ذي النون ان يزهد السالك في نفسه اولا فانه اذا احب نفسه ادى به ذلك الى الانغماس في اشباع اهوائها ولفاتها • اما اذا زهد فيها أوصله ذلك الى الزهد في الدنيا • وقد قال رجل لذي النون : " متى أزهد في الدنيا : " قال إذا زهدت نفسك " <sup>(٤)</sup> وكان صوفينا يرى ان الزهد في زمانه اصبح امرا نادرا ويقول في ذلك : " أدركنا ناس الواحد منهم كلما ازداد علما ازداد في الدنيا زهدا وتركها لها • واليوم يزداد الرجل بعمله حبا للدنيا وطلبا لها وكان الرجل ينفق ماله على علمه • واليوم يكسب الرجل بعمله مالا • وكان يُرى على صاحب العلم زيادة في باطنه وظاهره • واليوم يُرى على كثير من أهل العلم فساد الباطن والظاهر " <sup>(٥)</sup> وعلى السالك الذي زهد في الدنيا واتجه الى الله ان يتحقق بمحبته •

١١ - مقام المحبة والعشق : كان لذي النون نظرية في المحبة فهو يرى أن حبا عظيما

متبادلا بين العبد وربه • وقد تحدث ذو النون عن المحبة وكانت رابعة العدوية قد سبقته

الى ذلك • فللمحب الصادق هو من أحب كل شيء يحبه الله ، وابتغى كل شيء يبتغىه الله •

(١) محيي الدين بن عربي الكوكب الدرر في مناقب ذو النون المصري ل ١٢٠

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٣ طبعة صبيح • الاصبهاني حلية الاولياء ، ج ٩ ص ٢٨٢

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة •

(٤) السلمى - الطبقات ص ١٠ •

(٥) الرسالة القشيرية ص ٥٧ وطبقات السلمى ص ١١ •

والمحبه هى ايضا فعل الخير بجميع صوره فى كل وقت وفى كل مكان ، وهى أيضا فى البعد عن كل ما يشغل السالك عن ربه • وببعده عن التقرب اليه ، والمحبه هى كذلك الا يخشى السالك إلا الله ولا يخاف فى الله لومة لائم ، وان يكون رقيق القلب عطوف على اخوته من المسلمين ولا يتساهل مع الكافرين وان يقتدى بالرسول الكريم فى قوله وفعله ودينه • وقال شيخنا عندما سئل عن المحبة : " ان تحب ما احب الله ، وان تبغض ما ابغض الله ، وتفعل الخير كله ، وترفض كل ما يشغل عن الله ولا يتخلف فى الله لومه لائم • مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله ( ص ) فى الدين " (١) • وقد أنشد ذو النون فى الحب مناجيا ربه :

- |     |                              |     |                                  |
|-----|------------------------------|-----|----------------------------------|
| • • | أموت وما تمت اليك صابتي      | • • | ولا قضيت من صدق حبك اوطاري       |
| • • | مناي كل المنى انت لى منى     | • • | وأنت الغنى وكل الفنى عن أقتارى   |
| • • | وأنت مدى سؤالى وغاية رغبتى   | • • | وموضع أمالى ومكنون اضمارى        |
| • • | تحمل قلبى فيك ما لا أبته     | • • | وان طال سقمى فيك أو طال إضرارى   |
| • • | وبين ضلوعى منك مالك قد بدا   | • • | ولم يبد باديه لأهلى وجارى        |
| • • | وبى منك فى الاحشاء داء مخامر | • • | ومنقذ من أشفى على جرف هارى       |
| • • | أنرت الهدى للمهتدين ولم يكن  | • • | من النور فى ايديهم عشر معشار (٢) |
| • • | فأغنى بعفو منك احيا بقربه    | • • | أغثنى بيسر منك يطرد أعمارى       |

وفى هذه الأبيات يعبر ذو النون عن مدى حبه لله تعالى فهو يرى أن حب الله باقيا فى قلبه طوال عمره وحتى بعد مماته فان هذا الحب الكبير لا يموت ولا ينتهى • وان الله تعالى هو كل مناه فهو يحبه لذاته • وهو سبحانه الفنى كل الفنى عن أعماله وتعبده ، وهو سبحانه كل مطلبه وموضع اماله ، وهو الذى يملك عليه سره • وقد خمل فى قلبه حبا يعجز عن بثه أو التعبير عنه مهما طالبت لوعته وسقمه • وبين جنباته حبا لا يخفى على الله وان كان يخفى على الاهل والجار ، وحبه تعالى قد استقر فى دمه

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٠ •

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة و السلمى - طبقات الصوفية ص ١٠ •

والله ربه دليل لكل محتار ومنقذ كل من قل عن الطريق واشرف على الهاوية وقد انار طريق الهداية للمهتدين الذين لم يكن لديهم من الهدى عشر معشار ما كان عنده ويقول : فنلنى بعفوك يا إلهى وإثنى بيسر منك ويسر لى أمرى •

وللحب عند ذى النون علامات أهمها أن يكون المتحقق بمقام الحب متابعا للرسول ( ص ) ومقتديا به ويقول : " من علامات المحب لله ، متابعه حبيب الله ( ص ) فى أخلاقه وأفعاله وأمره وسنته " (١)

وحقيقة المحبة عند ذى النون أن تحب من يحبه الله وتبغض من أبغضه الله وتطلب رضاه وترفض جميع ما يشغلك عنه <sup>لا تتخف</sup> فى إلهه لومه لآتم بأن تعزل نفسك عن رؤيتها وتدبيرها فإن أشد الحجب رؤية النفس " (٢) • فعلى سالك طريق الصوفية ان يحب فى الله ويبغض نفسى الله ويرفض كل ما يشغله عن الله ولا يخشى فى الله لوم وأن يسقط تدبير نفسه لأن رؤية تدبير النفس هو أشد الحجب التى تحجب السالك عن حبيبه • وهو فى قوله هذا يتفق مع ما نجده عند ابو الحسن الشاذلى ( المتوفى سنة ٦٥٦ هـ ) حيث قال : " ولم يصل الولى الى الله ومعد تدبير من تدبيراته او اختيار من اختياراته " (٣) وهو أيضا يشبه ما نجده عند ابن عطاء الله الكندرى ( المتوفى سنة ٧٠٩ هـ ) والذى قال : " أهل الغفلة والاساءة قد اجابوا الشيطان فى الكباثر والمخالفات واتباع الشهوات فليس للشيطان حاجة ان يدعوهم الى التدبير ولنسودعاهم اليه لاستجابوا بسرعة ••• فليس هو أقوى اسبابه فيهم إنما يدخل الشيطان بذلك على أهل الطاعة والمتوجهين لعجزه عن أن يدخل من غير ذلك عليهم. فرب صاحب ورد عطله عن ورده أو عن الحضور مع الله تعالى فيه هم التدبير والفكره فى مجال نفسه ، ورب ذى ورد استضعفه الشيطان فالقى اليه دسائس التدبير ليعكر عليه صفاء وقته " (٤)

(١) السلى - طبقات الصوفية ص ١١ - محبى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢١

(٢) المرجع السابق نفس اللوحة

(٣) د • ابو الغنىعى التفتازانى - ابن عطاء الله الكندرى وتموفه ط ٢ ص ١٣١ •

(٤) المرجع السابق ط ٢ ص ١٣٠ •



العليا من الدرجات فما بعد ادراك المحبه مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها  
كانشوق والانس والرضا واخوانها ، ولا قبل المحبة مقام الا هو مقدمة من مقدماتها كالتوبة  
والصبر والزهد وغيرها " (١) .

وإذا تحقق السالك بمقام المحبة تواضع لله فعليه أن يتحقق بمقام التواضع .

١٢ - مقام التواضع : يذهب ذو النون الى أن المرید الصادق لابد أن يتحقق بالتواضع فمن  
تواضع لله رفعه الى أعلى الدرجات وعليه بترك الغرور وأن لا يرى في تعبه وزهده وتقريبه  
الى الله شيئاً يميزه على غيره من الناس ، فلا يعجب بأعماله ولا يتباهى بها حتى لا تكون  
حسناته سيئات ويقول : " من تزين بعمله كانت حسناته سيئات " (٢) ويقول أيضا : " دوام  
الفقر الى الله مع التخليط . أحب إلي من دوام المغاء مع العجب " (٣)

وحقيقة التواضع عند شيخنا أن يطلب المرید من ربه الحاجة بلسان الفقر لا بلسان  
الحكم فإذا كان له عند الله حاجة فيرجوه تعالى في تواضع ان يقضيها له ويقول : " اطلب  
الحاجة بلسان الفقر لا بلسان الحكم " (٤) وعنده أن من الاسباب الداعية للتواضع ان ينظر  
الانسان الى عظمة ربه فتصفو نفسه وتتواضع الى جانب سلطان الله وهيبته . فمن نظر الى الله  
على إنه خالق نظر الى نفسه على انه مخلوق ومن نظر الى الله على أنه قادر نظر الى نفسه  
على أنه عاجز ومن نظر الى الله على انه عالم نظر الى نفسه على انه جاهل خلداً لداخل السالك  
العجب بنفسه وجب عليه أن يتذكر عظمة الله فيشعره ذلك بخضعه وقلة حيلته ويقول شيخنا :  
" من أراد التواضع فليوجه نفسه الى عظمة الله فانها تدوب وتمضو ، ومن نظر الى سلطان  
الله ذهب سلطان نفسه لأن النفوس كلها فقيرة عند هيبته " (٥)

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج ٤ ص ٢٥٢ .

(٢) السلمى - الطبقات ص ١١ . بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢٣ و

(٤) المرجع السابق نفس اللوحة . وانظر السلمى - الطبقات الصوفية ص ١٠

(٥) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ١٢٣

وقال تعالى يحث عباده على التواضع : " سأصرف عن آياتي الذين يستكبرون فسئى الأرض بغير الحق " (س الاعراف آية ١٤٦) .

ويذهب ذو النون الى أن من علامات الغرور الاعتماد على رحمة الله مع قلة العمل ويقول : " من علامة المغترين إعتادهم على رحمة الله ومغفرته " (١) ثم على السالك أن يتحقق بمقام التوكل .

١٢ - مقام التوكل : يعنى التوكل عند شيخنا اسقاط الإلتدبير . بمعنى أن الذى تحقق بالعبودية وصدق ما عاهد الله عليه من التزام طريق الصوفية وتحقق بالتوحيد واليقين . فإنه يترك تدبير نفسه ويتوكل على الله ويفوض إليه أمره ويقول ذو النون فى حقيقة التوكل : " التوكل ترك تدبير النفس ، والانخلاع عن الحول والقوة " (٢)

وقد حث الله عباده المؤمنين على التوكل عليه فى قوله تعالى : " ومن يتوكل على الله فهو حسبه " (س الطلاق آية ٢) وقوله تعالى : " وعلى الله فليتوكل المؤمنون " (س آل عمران آية ١٦٠) والتوكل يستند أساسا كما هو واضح من الآية على الايمان اليقيني بالله الواحد الأحد . فإن لم يكن السالك على يقين تام لا يصح توكله . فالانسان لا يوكل امره الا لمن وثق فيه واعتقد اعتقادا تاما فى قدرته . ولذا سئل حمدون القصاص الصوفى عن التوكل فقال : " تلك درجة لم أبلغها بعد وكيف يتكلم فى التوكل من لم يصح له حال الايمان " (٣) . ويربط ذو النون بين التوكل والتوحيد فيقول : " التوحيد أن تعلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج . وعلة كل شىء صنعها ، ولا علة لصنعها وليس فى السماوات العلا ولا فى الأرضين السفلى مدير غيره " (٤)

(١) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى ل ١٢٥

(٢) السلمى - طبقات الصوفية ص ٠٠

(٣) الغزالي - أحياء علوم الدين ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) الرسالة القشيرية ص ٨٧ طبعة صبيح .

فإذا تحقق السلك بالابمان اليقيني والتوحيد الحق وعلم أن قدرة الله في الأشياء هي قدرة خالصة لا يشاركه فيها سواه وأنه سبحانه على كل شيء وأنه المدبر الوحيد لأمر السماوات والأرض فإنه يسقط تدبيره ويبلغ أمره إلى الله ويتوكل عليه . وعليه بعد ذلك أن يحاسب نفسه ويراقب ربه .

١٤ - مقام المحاسبة والمراقبة : يستند مقام المحاسبة على آية مثل قوله تعالى : " وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله " ( س البقرة آية ٢٨٤ ) . ويستند مقام المراقبة على قوله تعالى : " وارتقبوا انى معكم رقيب " ( س المائدة آية ١١٧ ) . فالسالك طريق الصوفية عليه بمحاسبة نفسه على كل ما يقوم به من اعمال واقول وطاعات . ويراقب نفسه مراقبة شديدة ويعلم أن الله يراقبه فى كل حركاته وسكناته وأنه يعلم ما خفى فى سره وما ظهر فى علنه . فالمراقبة كما يقول الامام القشيري : " هي علم العبد باطلاع السرب سبحانه وتعالى عليه واستدامته لهذا العلم ومراقبته لربه . وهذا اصل كل خير ، ولا يكاد يصل الى هذه المرتبة الا بعد فراغه من المحاسبه فإذا حاسب نفسه على ما سلك ، وأصلح حاله فى الوقت ولازم طريق الحق أحسن بينه وبين الله تعالى مراعاة القلب وراقب الله تعالى فى عموم احواله " (١)

ويقول ذو النون يا أخى وصيتك بتقوى الله العظيم والمراقبة له حيث لا يراك أحد الا الله والاستعداد لما ليس لأخيك فيه خجله فاجتهد الى خلع قناع الخافلين " (٢)

وحقيقة المراقبة عند صوفينا أنها نور ينير سبيل السالك فى طريقته الى الله . ويقول فى ذلك : " لا يجد السبيل الى الله من لم يتأدب بنور المراقبة . ولم يستحق الولاية من لم تكتنفه الكفاية . ولم يرتع فى رياض انته من لم يعبر بحار عظمته ، ولم يلج بباب

(١) الرسالة القشيرية ص ٧٨ .

(٢) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى ل ١٢٦

(١) الوصول من لم يسير اليه على أقدام الهيبة " .

وعلامة المراقبة عند ذى النون حب وتفضيل ما أحبه الله وفضله ، وتعظيم ما عظمه ،

وتصغير ما صغره ويقول فى ذلك : " علامة المراقبة إثارة ما آثر الله تعالى وتعظيم ما عظم

الله تعالى ، وتمغير ما صغر الله تعالى " (٢)

---

(١) محيي الدين ابن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى ل ١٢٦

(٢) الرسالة القشيرية ص ٨٨ طبعة صبيح .

الاحوال : تتداخل مع مقامات السلوك عند صوفينا أحوال وهبية وبين الاحوال والمقامات تشابك وتشابه فإذا استقر الحال وثبت صار مقاما وقد عرفنا أن المقامات مكاسب والاحوال موهب وصوفينا يربط بين الحال والجبر واسقاط التدبير فيقول " لا يكون للانسان من الاحوال إلا ما يريد الله له ، وليس الانسان في حاجة إلى أن يعلم ما هو هذا الذي إختاره له إذا كان الله قد يحكم ما هو كائن ، وهو الحكون للأشياء ، وهو الذي يختار للانسان" (١) .

احال الانس :- يعتبر ذو النون أن حال الانس ثمرة من ثمرات الحب لله والشوق اليه وهو عنده حاله من الفرح تنمر السالك لقربه من الله ومطالعتة الحاضر المكشوف واستنار قلبه بالفيوضات الالهية التي تشرق على قلبه من لدن الله تعالى . وهو عنده يعنى : " صفاء القلب مع الله والتفرد بالله والانقطاع عن كل شئ سواه " (٢)

والمتحقق بحال الانس فيما يرى ذو النون فإنه يشعر " باستلذاذ الخلوة ، واستيحاش المحبة ، واستحلاء الوحدة " (٣) وهذا يشبه مانجده عند الغزالي فهو يرى من علامة الانس الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق ، والتبرم بهم والاستنارة بعذوبة الذكر . فإن خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة ، وغريب في حفرة ، وخاص في سفره ، وشاهد فسي غيبة ، وغائب في حضور ، مخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبه الذكر . كما قال على بن ابي طالب كرم الله وجهه في وضعهم ( أى المتحقيين بحال الانس ) " هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الامر فباثروا روح اليقين ، واستلانوا ما أستوعر المترفون وأنسوا بما

- (١) أنظر أبو نعيم الاصفهاني في حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٨٢ وأنظر أيضا د . محمد مصطفي حلمي . دائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذى النون ج ٤ ص ٤٢٥ .
- (٢) السلمى - الطبقات ص ١٠ - ابو نعيم الاصفهاني : حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٨٢
- (٣) المرجع السابق نفس الصفحة .

استوحش منه الجاهلون • صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الاعلى • أولئك خلفاء  
الله فى أرضه والدعاة الى دينه " <sup>(٤)</sup> فمن تحقق بحال الانس لا يأنس إلا بالله فلا يأنس بالخلق  
وفى رأى شيخنا أن من أستاذس بالخلق فهو بعيد عن الحضرة الالهية ويقول : " من أستاذس  
بالخلق فقد إستمكن من بساط الغراعة ، ومن غيب عن ملاحظة نفسه فقد إستمكن من الاخلاص •  
ومن كان حظه فى الاشياء هو " أى الله " لايبالى ما فاته مما هو دونه . ( أى دون الله ) " <sup>(٢)</sup>

فحقيقا لانس استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى أنه إذا تجرد عن ملاحظة  
ماغاب عنه وما يتطرق اليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا قيل لبعضهم أنت  
مشتاق فقال لا إنما الشوق الى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فالى من يشناق • وهذا كلام  
مستغرق فى الفرح فير ملتفت الى مابقى فى الامكان من مزايا اللطاف <sup>(٣)</sup>

ويربط ذو النون كما هو واضح بين حال الانس والعزلة والخلوة فى قوله : " الانس بالله  
نور ساطع والانس بالخلق غم واقع " <sup>(٤)</sup> فالمأتنس بالله يتمتع بأنواره أما المتأنس بالخلق  
فإنه يلحقه الغم لما قد يجز عليه الانس بهم من متاعب •

وللأنس عند شيخنا درجات أدناها أن يفقد المتحقق بحال الانس بالله شعوره بنفسه  
حتى أنه إذا القى فى النار وهو فى غمرة أنسه بالله فلا يغيب أهتمامه عن مطالعة لذة الانس  
بالله والاستمتاع بها فيقول فى ذلك : " أدنى منازل الانس أن يلقي فى النار ( أى السالك )  
فلا يغيب همه عن مأموله <sup>(٥)</sup> ويكون ذلك لشدة استغراقه فى الله غير شاعر بما يحدث له

(١) الغزالي احياء علوم الدين ج٤ ص ٣٢٠

(٢) السلمى الطبقات ص ١٢ - محى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المجرى

ل ٨٥ ظ

(٣) السلمى - الطبقات ص ١٢ والغزالي احياء ج٤ ص ٣٣٠

(٤) السلمى الطبقات ص ١١ - الغزالي احياء ج٤ ص ٣٣٠

(٥) السلمى الطبقات ص ١٠

ويمصيه ويعلل علماء علماء النفس ذلك بأن مستوى النشاط الذهني أثناء ذلك يكون أقل تماسكا وجودة من مستوى نشاط الشخص العادي الضابط لنفسه وقد يكون التأمل قويًا والمخيلة متوقدة وثابتة غير أن الأفكار تكون في الوقت نفسه مطلقة ملازمة يعجز الفرد عن تحويل مجراها وتوجيهها وعن أن ينقل إنتباهه الى مجال آخر (١)

٢- حال الفناء والاتصال :- يعتبر حال الفناء عند صوفينا هو أقصى درجات القرب من الله التي يمكن أن يحظى بها الوامل الى الحضرة الالهية . ويحلل ذو النون حال الفناء في الله والاتصال الروحي بينه تعالى وبين الوامل اليه بقوله : " إنك إن أطعته أفادك حبه وأدناك الى قربه ، وإذا أدناك الى قربه ثم لذدك بمناجاته أفناك بذكره ، وإذا أفناك بذكره أقعدك على مرآة سره . ثم روحك وفطرك ، وحكمك وأيدك ، ثم أوصلك بوصاله الى موطنه فأنهلت بسلاصلة ، ووصلت بلا فصل . وهذا المقام العالي والمرتبة العظيمة وذاك فضل من الله يؤتيه من يشاء " (٢) .

فالصوفي الذي أطاع الله وتحقق بمنازل السلوك اليه وراضى نفسه وهيا قلبه للاتصال بالله وداوم ذكره بقلبه وروحه وصار محبوبه وموضع همه دون سواه أدناه الله الى قربه ولذذته بمناجاته وافناه بذكره ، وجل مرآة سره وأفاض عليه من المعارف الذوقية والانوار الالهية واطلعه على ما لا يخطر على قلب بشر وبذلك يكون قد روحه وفطله وأيده وأوصله الى حضرته دون وصلة أو واسطة وصلا بلا انفصال وهو أعلى الاحوال واعز المنازل والاحوال وهو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده المخلمين .

وإذا كان شيخنا يقول : " ووصلت بلا فصل " فإنه لايعنى أن المتحقق بحال الشفاء والاتصال يظل في فناءه دائما بلا بقاء وإنما يعني أن من وصل الى هذه الدرجة العظيمة فإنه

(١) د . يوسف مراد مبادئ علم النفس العام ط٤ ص ١٢٩

(٢) انظر منى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب ذو النون المصرى معهد المخطوطات

يظل على اتصال قلبي وروحي بالله حتى بعد زوال حال الفناء ورجوعه الى البقاء . وحقيقة  
 الفناء أن السالك الذي يستغرقه التفكير في الله حتى يفنى عما حوله ثم يفنى عن نفسه ويمسح  
 الحق سبحانه هو المهيمن الوحيد على فكره أو كما يقول علماء النفس . . . يبدأ بأن يكون  
 العالم الخارجي على هامش شعوره ، وتسيطر فكرة الله على بؤرة شعوره ، ثم يستغرقه التفكير  
 في الله فيفنى عن العالم من حوله ثم يفنى عن نفسه وتكف جميع الافكار المناهضة لفكرة الله ،  
 حتى تسيطر وحدها على كل مشاعره . فيقال أنه فنى عما حوله وفنى عن نفسه وبقي بالذات .  
 يوقول ذو النون : " من غيب عن ملاحظة نفسه فقد استمكن من الاخلاص " (١) أي إخلاص سره  
 وقلبه لله تعالى وحده . والغاى في الله يتلقى المعرفة النورانية من لدنه تعالى في لحظة  
 فنائه وهذا ما سيتضح لنا عند الحديث عن المعرفة عند شيخنا .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢٦ .

### المعرفة

١ - تمهيد : إتضح لنا فيما سبق كيف ينجح السالك في تطويع نفسه الامارة بالسؤ لنفسه المطمئنة عن طريق المجاهدات والرياضات العملية المختلفة وتخليه نفسه من الاخلاق الذميمة وتحليلها بالاخلاق الكريمة عن طريق التحقق بالمقامات والاحوال الصوفية حتى تمفو وتطهر ويصير أهلاً لتقبل المعرفة الذوقية القلبية عن الله سبحانه في حال الاتمال الروحي بين السالك الذي تحقق بالكمال الاخلاقي وبين الله ويقول ذو النون مكاشفات القلوب بالاتمال ومكاشفات النفوس بالابعاد <sup>(١)</sup> ونجد لدى ذو النون نظرية في المعرفة الاثراقية قد تطورت بعد ذلك على يد من جاء بعده من الصوفية ويقول الاستاذ المرحوم الدكتور محمد مصطفى حلمي : "إذا انتقلنا الى الناحية التيوزوفية الخاصة لهذا المذهب ( أي مذهب ذي النون ) الفينا له نظرية في المعرفة وآخري في المحبة وكلتاهما تنطويان على كثير من المعاني الفلسفية التي ظهر لأول مرة في تاريخ التصوف الاسلامي عند ذي النون وكان ظهورها عنده في صورة ساذجة بسيطة ثم أخذت هذه الصورة تدق وتتضح رويدا رويدا على أيدي من تعاقب بعده من الصوفية بصفة عامة . حتى تهيأ لها من الدقة والوضوح والتمام أكبر حظ عند الصوفية المتفلسفين . أو الصوفية الذين وقع التزاوج في مذاهبهم بين التصوف والفلسفة الالهية وعلم الكلام من أمثال محيي الدين بن عربي ، وعمر بن الفارض ، ويحيى السهروردي المقتول ، بصفة خاصة وأود أن أكرر هنا ان تصوف ذي النون عامة ونظرية في المعرفة بوجهه خاص تخلو من القول بالاتحاد أو غيرها من النظريات والشطحات . التي تخالف في ظاهرها على الأقل ماجاء بالكتاب والسنة فهو كما سنرى في حديثه عن المعرفة الذوقية كان ملتزماً في كل أقواله .

---

(١) محي الدين بن عربي - الكوكب الدرّي في مناقب ذي النون المصري مخطوط مصور بمعهد المخطوطات العربية ١٤٢٠ التاريخ .  
(٢) انظر مقال د. محمد مصطفى حلمي . بدائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذي النون ج٤ ص ٤٢٢

٢ - الوصول الى الله : - ويحدثنا شيخنا عن السالك الذى وصل الى أعلى الدرجات وتجاوز مراحل الطريق ثم له الوصال والاتصال . فيتجلى له الله فى قلبه حال فناءه عن نفسه ويقول : " إن المرید إذا صدق سعيه بينه وبين الله تجلى فى سره " (١) ويتحقق الواصل السى لله بالمعرفة الذوقية فى حال الفناء وهى أعلى درجات الطريق الصوفى لا يضل اليها إلا الكمل اللذين أخلصوا لله وتجردوا فى سلوكهم الطريق اليه وفنوا أنفسهم فى التعبد اليه وتهيات قلوبهم وصفت نفوسهم وشحذت همهم فانعم الله عليهم بنعمة الوصال وكشف الله بصيرتهم وجلسى مرآة قلوبهم فاشرقت عليها أنوار المعرفة الذوقية . يقول ذو النون عن العارفين : " عبروا جسر الهوى حتى نزلوا بفناء العلم ، وشربوا من غدير الحكمة وركبوا سفينة الغبطة واقلعوا بريح النجاة فى بحر السلامة حتى وصلوا الى رياض الراحة وسعدن العزة والكرامة " (٢) وفى هذا النص يربط صوفينا بين المعرفة بالله معرفة قلبية ذوقية وبين الراحة النفسية للعارف فالعارفين على حد تعبيره قد وصلوا الى رياض الراحة فقد ربط ذو النون بين معرفة الله وبين عبادة العارف ويتضح ذلك من قوله : " العارف ينقلب فى ليلة ونهاره فى أربع روضات أنس الوحدة . سرور المعرفة - وحلاوة الخدمة وخوف القرقة " (٣) فالعارف بالله بأنس به تعالى وسر وسعد لمعرفته . ويجد حلاوة فى التعبد له وطاعته ويخشى الانفصال بعد الاتصال . ويذهب ذو النون الى أن العارف يزداد خشوعا كل يوم لان كل ساعة تمر عليه تقربه الى ربه اكثر ويقول : " العارف كل يوم أخشع لأنه كل ساعة أقرب " (٤) ويرى أن العارف لاتلزمه حالة واحدة وانما عليه أن يلزم ربه فى جميع الحالات فهو ينتمى على الدوام بمعرفة ربه معرفة

(١) انظر مقال د . بدائرة المعارف الاسلامية تعليق على مادة ذى النون ج٤ ص ٤٢٧

(٢) انظر - محي الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى مخطوط مسموع -

بمعهد المخطوطات ٤٢١ تاريخ وانظر أيضا - الغزالي مكاشفات القلوب ص ٦٠

(٣) انظر - محيى الدين بن عربى - الكوكب الدرى فى مناقب ذى النون المصرى مع

٤٢١ تاريخ

(٤) المرجع السابق وانظر السلمى : طبقات الصوفية ص ١١

يقينية لا يساوره فيها أدنى شك ويقول : " أن العارف لا ييلزمه حالة واحدة وإنما يلزم ربه في الحالات كلها " (١) . وعلامة العارف عند شيخا ثلاثة هي : " الا يطفى نور معرفته نور ورعه ، والا يعتقد باطلا من العلم ينقض عليه ظاهرا من الحكم ، وألا تحمله كثرة نعم الله عز وجل على هتك أستار محارم الله " (٢) وهذا النص يوضح أن صوفينا يحرم دائما على التمسك بظاهر الشرع في العمل والاعتقاد . والواصل الى مقام المعرفة يصير صوفيا كاملا عارفا بالله يتمف بالاخلاق الربانية ويكون حسن العشرة قوى الاحتمال شديد الصبر في معاملته مع الآخرين ويقول : " معاشره العارف كمعاشره الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلفا باخلاق الله " (٣) . ويقول أيضا : " ادب العارف فوق كل أدب لأن معرفته مؤدب قلبه " (٤) أى أن الواصل الى معرفة الله يكون أكثر الناس أدبا ، لأن ما فاض على قلبه من المعارف النورانية أدب قلبه وجمله بالكمال الأخلاقي .

٢- حد المعرفة وموضوعها : يحد ذو النون المعرفة بقوله : " النظر في الامور كيف دبرها ، وفي المقادير كيف قدرها ، وفي الخلائق كيف خلقها " (٤)

وموضوع المعرفة الصوقية عند شيخنا هو معرفة الله تعالى - معرفة ذاته وصفاته واسمائها وهي معرفة لا تتثنى لاحد الا بعد طريق طويل من المجاهدة والرياسة كما هو واضح فيما سبق . ويوضح ذو النون أن معرفة الله معرفة ذوقية قلبية لاتعنى معرفته تعالى معرفة إحاطة فتلك معرفة ليست ممكنة لأحد من البشر فإنه سبحانه فوق كل إحاطه ويقول : " أعرف الناس بالله أشدهم تحيرا فيه " (٥)

- (١) محيي الدين بن عربي - الكوكب الدرر في مناقب ذو النور المصري ل ١٢٢
- (٢) المرجع السابق نفس اللوحة .
- (٣) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٠٩
- (٤) أبو نعيم الاصبهاني - حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٣٩ .
- (٥) الرسالة القشيرية ج ٢ ص ٦٠٥ .

٤ - أدوات المعرفة ومناهجها : تختلف أدلة المعرفة ومناهجها عند ذى النون باختلاف درجة العارفين ونوع المعرفة . فالمعرفة عنده على ضرب ثلاثة : - معرفة عامة للمسلمين وهي معرفة التوحيد ، ومعرفة المتكلمين والحكماء الذين يستندون الى الحجة والبيان والبلاغة ، ومعرفة خواص الأولياء المقربين الذين يعرفون الله معرفة يقينية قلبية لا يتطرق اليها ادنى شك : ويقول : " معرفة الله على ثلاثة أوجه : - معرفة التوحيد وهي لعامة المؤمنين . والثانية معرفة الحجة والبيان وهي للعلماء والحكماء والبلاغاء . والثالثة : معرفة صفات الوحدانية والفردانية وهي لأولياء الله وأصفيائه " (١) .

وعلى ذلك فإن للمعرفة بالله عند صوفينا درجات ثلاثة : وهي - ~~مناهج~~ ثلاثية أديانها معرفة العوام وهي تستند على الخبر المنزل والتوحيد دون استدلال أو طلب حجة . وأوسطها مرتبة معرفة الحكماء والفلاسفة وهي أرقى من معرفة العوام وتستند على منهج الاستدلال والبرهان العقلي بالنظر في المخلوقات والاستدلال منها على معرفة الخالق . أو الاستدلال من وجود المنفعة على وجود المانع وهي أدنى من المعرفة الثالثة وهي معرفة الخاصة من المؤمنين وهي أرقى أنواع المعرفة وتستند على منهج الشهود الذوقى والمعرفة من النوع الثالث لا يحتاج العارف للتحقق بها الى واسطة من حس أو عقل وإنما هي تشرق على قلبه من لدن الله تعالى في حال الفناء فهي إدراك ذوقى مباشر وهي أكثر أنواع المعرفة يقينا . يقول ذو النون في أداة المعرفة القلبية الذوقية عندما سئل بم عرف العارفون ربهم فقال ما نمه : " إن كان بشيء فقطع الطمع ، والاشراف منهم على اليأس مع التمسك منهم بالأحوال التي أقامهم عليها ، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم أنهم وصلوا بعد الى الله (٢) . بالله .

(١) ابو نعيم الاصبهاني : حلية الأولياء ، ج ٩ ص ٣٥٣ .

(٢) المرجع السابق وأنظر ايضا - الرسالة القشيرية ج ٢ ص ١٤٢ .

والحق أن صوفينا يفرق في معرفة الله بين السالك الذي ينتهي به الطريق الطويل الذي سلكه بالمجاهدات والرياضات والتحقق بالمقامات والاحوال حتى أن يصل الى معرفة الله معرفة قلبية الهامية من لدنه تعالى • وبين المجتبي أو المجذوب الذي يمطفيه الله دون مجاهده ودون السير في الطريق الصوفي • فيقذف في قلبه بنور المعرفة فيطلع الله تعالى على ذاته دون كسب منه أو اجتهاد • ولذا عندما أجاب عن كيفية معرفة الله قال : اذا كان بشيء فبقطع الطمع . . . الخ " • فهذا يدل على أن معرفة الله يمكن التحقق بها دون شيء أو دون اجتهاد أو مجاهدة • كما حدث له هو شخصيا • ولذلك قال : " ثم انهم وصلوا بعد الى الله بالله " • وعندما سئل كيف عرفت ربك ؟ فقال : " عرفت ربي بربى ولولا ربي ما عرفت ربي " (١) • وقد أشرت في أول البحث عن سبب توبته وكيف اصطفاه الله واطلعه على وجوده ثم بعد ذلك تلك الطريق الصوفي •

وقد كان لابن عطاء الله المكندري الصوفي المصري حديثا طويلا عن السالكين والمجذوبين • وسمى طريق المجذوبين بطريق التدلى وطريق السالكين بطريق الترقى (٢) •

وحديث ذو النون عن أنواع المعرفة ومناهجها وأدواتها يشبه ما نجده عن الغزالي في كتابه احياء علوم الدين حيث قال : " إن الايمان والمعرفة ثلاثة مراتب : المرتبة الأولى ايمان العوام وهو ايمان التقليد المحض والثانية ايمان المتكلمين والفلاسفة وهو ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبه من درجة ايمان العوام • والثالثة ايمان العارفين وهو المشاهدة بنور اليقين " (٣) •

كذلك ربط ذو النون بين المعرفة والراحة النفسية للعارف وسروره وسعادته وهو

(١) ابونعيم الاصبهاني حلية الاولياء ج ٩ ص ٣٥٣ •

(٢) د • ابو الوفا الغنيمي التفتازاني - ابن عطاء الله المكندري وتمصوفه ط ٢ ص ٢٧٨ -

• ٢٨٤

(٣) الغزالي : احياء ج ٢ ص ١٧ •

يشبه ما نجده عند الغزالي الذي جاء بعده بنظرية متكاملة في السعادة الناجمة عن معرفة الله فربط بين معرفة الله وبين سعادة الانسان الحقّة . وهو يرى أنه كلما كانت درجة المؤمن في معرفة الله أعلى كلما شعر بسعادة أعمق .<sup>(١)</sup> كما ربط المعلاقة بالتوحيد فـ يرى أن قدرة الله في الأشياء بلا مزاج وأنه ليس في السماوات العلى ولا في الارضين السفلى مدبر غير الله " <sup>(٢)</sup> وهو كان ليقين معرفته بالله يرى ان الله في كل شيء وبسمعه في كل صوت فهو يقول : " الهى ما أصغى إلى صوت حيوان ، ولا حفيف شجر ولا خرير ماء ، ولا ترنم طائر ، ولا تنعم ظل ، ولا دوى ريح ، ولا قعقة رعد ، الا وجدتها شاهدة بوحدانيتك دالة على أنه ليس كمثلك شيء ، الهى لاتترك بينى وبين أقصى مرادك حجابا إلا هتكته . ولا بابا إلا فتحته . حتى تقيم قلبى بين ضياء معرفتك وتذيقنى طعم محبتك ، وتبرد بهالرضا منك فؤادى وجميع أحوالى حتى لا أختار غير ما تختار ، وتجعل لى مقاما بين مقامات أهل ولاياتك ومضربا فسيحا فى ميدان طاعتك " <sup>(٣)</sup> .

وهكذا نجد عند شيخنا نظرية متكاملة في المعرفة لم يكن لها نظير عند من سبقه من أهل الطريق . ويقول فى ذلك الاستاذ الدكتور ابو الوفا التفتازانى : " وواضح أن هذه الأفكار المتعلقة بنظرية المعرفة ليس فيها بساطة تفكير الزهاد فى القرنين الأول والثانى وهى تمثل اتجاه التصوف إلى منهج أكثر دقة وعمقا ، وان شئت قلت هى تحول واضح من الزهد الى التصوف من حيث قوة فلسفة ابستمولوجية ذلك أن تقسيم ذو النون للمعرفة يتضمن القول بثلاث مناهج للمعرفة فهناك منهج النقل الذى يدرك العوام بوساطته التوحيد . ومنهج العقل الذى يعتمد عليه الحكماء والفلاسفة ومن نحى نحوهم وهو الاستدلال ومنهج الذوق المباشر وهو منهج الاولياء والصوفية . " <sup>(٤)</sup> .

(١) الغزالي - الاحياء - ج ٢ ص ١٧ .

(٢) ابونعيم الاصبهاني حلية الاولياء ج ٩ ص ٢٢٦ .

(٣) محيى الدين بن عربى الكوكب الدرى فى مناقب دو والنون المصرى ل ١٤٥

(٤) د . ابو الوفا الغنيمى التفتازانى : مدخل الى التصوف الاسلامى ط ٢ ص ٩٤ .

ولا شك أن نظرية ذى النون فى المعرفة قد تأثر بها الصوفية اللاحقون عليه كما هو واضح عند الغزالى وغيره من اهل الطريق .

### خاتمة البحث

إتضح لنا من هذا البحث النتائج التالية :-

- ١- ان للصوفى المصرى ذوالنون من ابرز صوفية القرن الثالث الهجرى ، مارس التصوف عملا ، كما كان له مذهبه النظرى فى التصوف . وهو من الرواد الاوائل الذين ادخلوا على معانى الزهد التى كانت سائدة بين زهاد القرنين الاول والثانى للهجرة معانى جديدة تحول على اثرها الزهد الى تصوف أو تحولت بعدها الحياة الروحية فى الاسلام من حياة ذات طابع عملى اخلاقى الى مذهب نظرى يرسم الطريق الصوفى امام السالكين .
- ٢- ان مذهب ذو النون الصوفى لا يخلو من الانظار الفلسفية غير أنه يخلو تماما من الشطحات والعبارات والنظريات الخارجة عن ظاهر الشرع . فتصوفه تصوف سنى ملتزم بالكتاب والسنة .
- ٣- انه كان فى حياته متهم بالزندقة من جانب بعض الفقهاء ، غير انه صبر على موقفهم منه و قد ظهرت ولايته فى حياته وعند وفاته .
- ٤- كان له مصنفات فى العلوم كالطب والكيمياء وغيرها وفى العلوم النظرية كعلم الكلام والادب والتصوف والحديث .
- ٥- ان مصنفاته منتشرة فى مكتبات العالم وفى حاجة الى من يجمعها ويحققها ويخرجها الى النور .
- ٦- كان من اوائل من تكلموا فى المقامات والاحوال الصوفية بشكل واضح مفعل ورسم الطريق الصوفى للسالكين ابتداء من مجاهدة النفس بالرياضات ، لعملية الروحية

للوصول الى المعرفة الذوقية التي هي غاية الطريق الصوفي فكان له نظرية فسي

المعرفة ونظرية في المحبه .

٧- ان مذهب الصوفي يحمل عناصر نظرية لها قيمتها الفلسفية وعناصر عملية لها

قيمتها الاخلاقية والتربوية وهو يُذكر متفرقا في كتب التراجم والطبقات وعلى

الباحث أن يستجمع شتات مذهب من تلك المراجع ويؤلف بينها .

٨- اتم عصره بازدهار العلوم والمعارف على اختلاف موضوعاتها وكان لذلك اثره

الواضح على فكره وثقافته فكان عصره حافلا بآرباب العلم من الفقهاء والمحدثين

والموفية الذين أخذ عنهم .

٩- كان له مصنغات في الحديث وكان عالما به وراويا له وإن كان لم يشتغل به الى الحد

الذي يجعله في عداد المحدثين وقد بلغ احترامه للحديث بان قال ان للحديث رجالا

وبناء على ذلك لم يعتبر نفسه من المحدثين رغم ما له فيه من مصنغات .

١٠- تآثر ذوالنون باصحاب الطرق الذين سبقوه والذين عاصروه كما كان لتآثيره الكبير

فيمن عاصره منهم وفيمن جاء بعده .